تيمورلنك



دار مشارق

تأليف : ساهر رافع

تيمور لنك

تأليف
ساهر رافع

الناشر
دار مشارق

بطاقة فهرسة

بطاقة فهرسة دار الكتب والوثائق القومية
رافع ، ساهر تيمور لنك / تأليف ساهر رافع القاهرة : ـدار مشارق للنشر والتوزيع ـ ٢٠١٠ ص: ١٥٠ـ سم :١٧×٢٤ تدمك:٥٢٤ ٦٣٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨ ١ـ تيمور لنك ، هو ١٣٣٦ـ١٤٠٥ ٢ـ القادة العسكريون أ:العنوان ٩٢٣,٥٥ رقم الإيداع/ ١٠٥٧٣ /٢٠٠٩

دار طيبة للطباعة-الجيزة

الطبعة الأولى ٢٠١٠

دار مشارق للنشر والتوزيع
١٥شارع الفاروق عمر بن الخطاب ـ طالبية- فيصل
ت:٣٧٢٤١٨٠٣-٠١٠٥٥٩٣٣١٧ـ ٠١٢٦٨٧٢٩٠٦
E-Mail:Mshareq@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى حياة العالم، خاصة فى العصور الوسطى، العديد من الشخصيات التى ساهمت فى تحديد مصير العالم فى الأعوام والقرون التالية، وكان من بين هؤلاء الشخصيات تيمور لنك الذى سطر بتحركاته وحروبه تاريخ نصف المنطقة المأهولة بالسكان فى عصره .

وعلى الرغم من أنه لم يكن ينحدر من النسل المباشر لجنكيز خان، ومن ثَمّ لم يكن له طبقا - للقواعد التى وضعها جنكيز - أى نصيب من الوصول إلى سدة الحكم، ليس فقط بين المغول أيا كانت ديانتهم، إنما فى أن يكون حاكما وقائدا لأى شعب فى الحقبة الزمنية التى عاش فيها.

إلا أن تيمور من خلال قدراته الشخصية الفذة والقوية استطاع أن يبسط نفوذه رويدا رويدا على كل المغول، وبعدها استطاع أن يتغلب على كل الملوك والأمراء المعاصرين، له وأن يخضعهم لسلطانه ونفوذه، واستطاع أن ينشئ الإمبراطورية المغولية التى سادت كل آسيا ووصلت إلى حدود أوروبا وأفريقيا.

وإذا كان نفوذ تيمور القوى كان على ممالك وإمارات آسيا إلا أننا نجد أن سلطان مصر التى كانت تبسط نفوذها على أجزاء من آسيا كان يخشى مواجهته ولا يتمنى مواجهته، ونفس الحال فى أوروبا الصليبية التى ما كانت ترغب فى الدخول فى أية مواجهة عسكرية معه، بل كان ملوكها - إنجلترا وفرنسا والمجر . . إلخ - يسارعون بإرسال خطابات التهنئة له بعد كل انتصار يحققه، خاصة كلما كانت تلك الانتصارات تقع على الحدود الشرقية أو الشمالية لأوروبا .

تمهيد

ولد تيمور لنك فى الأراضى التى سماها العرب والمسلمون بلاد ما وراء النهرين وهذان النهران، هما نهر جيحون ونهر سيحون فى التسمية العربية، أو هما نهر أموداريا ونهر سيرداريا، وهما من الأنهار التى تشكل جزءاً هام من طبيعة وجغرافية أراضى وسط آسيا.

وكان جده لأمه جنكيز خان قد استطاع أن يوحد تلك المناطق ببلادها ومدنها المختلفة تحت سلطته ونفوذه من خلال استخدامه لسياسة الفتح العسكرى، وقد تم إطلاق اسم المغول على تلك المملكة التى أسسها جنكيز خان فى منطقة وسط آسيا، ومنها بدأت محاولته لاجتياح العالم أجمع.

وبعد وفاة جنكيز خان تفتتت مملكته لاعتبارات كثيرة ليس مجالها هذا الكتاب، ولكن الاعتبار الذى سأناقشه باعتباره مرتبطا بقصة صعود تيمور لنك هو الجانب الجغرافى لمنطقة آسيا الوسطى، حيث إن جغرافيتها أثرت كثيرا على سلوك هؤلاء الأقوام الذين سكنوها.

وتتميز منطقة آسيا الوسطى بأنها بعيدة عن شواطئ المحيطات التى تحيط آسيا من كل جانب، كما أن مناخها جاف تنمو فيه الأعشاب، وبالتالى فإن الحياة فيها تكاد تكون محصورة فى أماكن جريان الأنهار أو مناطق عيون المياه.

ولذلك كانت هذه المنطقة طاردة لسكانها، ومن ثم فإنها كانت تشكل طريق الهجرة من مناطق الشمال الأكثر برودة والتى سكنتها القبائل الروسية فى طريق هجرتها إلى أوروبا فى الغرب، أى إلى منطقة الأناضول، أو نحو الهجرة إلى المناطق

الجنوبية الدافئة فى جنوب غرب آسيا، وأيضا باتجاه شبه الجزيرة العربية، ولذلك كانت تلك المنطقة التى سيطر عليها المغول هى الطريق المؤدى إلى القارة الأوربية.

وكانت بداية نشأة تلك التجمعات البشرية فى منطقة وسط آسيا قد بدأت مع بدايات الألف الرابعة قبل الميلاد، وفى وقت متزامن لتجمع السكان على الهضبة الإيرانية، وقد سكن الناس المناطق التى تلتقى فيها السهول الجبلية مع السهول التى تنتشر تحتها نظرا لتوفر المياه التى تعين السكان على قضاء حاجاتهم .

وبمرور الزمن زادت تلك التجمعات البشرية، وأصبحت تلك التجمعات البشرية تمتد من منطقة جنوب وسط آسيا إلى نهر جيحون - أموداريا فى الغرب، وحتى جنوب بحر أرال -خوارزم فى - الشمال الغربى، وامتدت كذلك حتى حدود الصين.

لذلك كانت هذه المنطقة - وسط آسيا - هى منطقة مرور التجارة التى نشأت بين الصين والهند، ومن ثم ازدهرت الحياة الاقتصادية لمدن وسط آسيا لاحتراف أهلها التجارة، بينما كان أولئك الذين فضلوا العيش فى الجبال كبدو رحل يرعون الأغنام والبقر والحمير، وكذلك الخيول لما لمسوه فيها من سرعة فى الانطلاق وقدرة عالية على تحمل الصعاب.

وكانت كلما تمر فترات قحط وجدب فى موارد المياه فى المناطق الجبلية التى يسكنها البدو نتيجة نقص الأمطار كانوا يغيرون على طريق القوافل التجارية ليسلبوا التجار أموالهم ومأكولاتهم التى يحملونها معهم.

وفى نفس هذا التوقيت تقريبا كان هناك مجموعة من البدو الذين يسكنون مناطق غرب الصين قد بدءوا يتجهون إلى مناطق آسيا الوسطى هربا من بطش قبيلة هيونج نو التى بدأت تتحكم فى زمام الأمور فى غرب الصين.

وقد نشأت علاقات تصاهر وقرابة بين بدو الصين الرحل وبدو منطقة وسط آسيا وبمرور الوقت هاجر جزء منهم إلى أرض إيران.

ومع حلول بدايات القرن الثالث عشر الميلادى كان جنكيز خان قد استطاع إحكام سيطرته على تلك القبائل البدوية، وشكل منها أمة المغول التى استطاع عن طريقها إحكام سيطرته أولا على تلك المنطقة، ومنها بدأ فى شن هجماته نحو كل البلاد المأهولة بالسكان من حوله.

وكان من ضمن المناطق التى استطاع جنكيز خان أن يضمها إلى سيطرته المناطق التى كانت القبائل التركية تسيطر عليها، وقد كانت هذه القبائل على درجة ثقافية ومن ثم حضارية أرقى بكثير من تلك القبائل المغولية، لذلك استطاعت الثقافة التركية أن تغزو الثقافة المغولية من خلال تحويل لغة المخاطبة والحديث بين الناس إلى اللغة التركية بسمات الثقافة الإيرانية باعتبارها الحضارة التى كانت مهيمنة على تلك المناطق.

أراضى ما وراء النهر

ونظرا لأهمية الموقع الجغرافى الذى انطلقت منه فتوحات تيمور لنك للعالم عدا مصر فإنه من المهم أن نعرف أن بلاد ما وراء النهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى:

١ - القسم الشمالى الغربى: هو عبارة عن أراضى صحراوية، وقد أطلق سكانها عليها اسم الرمل الأحمر للدلالة على عدم صلاحيتها للحياة نتيجة جدبها المستمر.

٢ - مجموعة المرتفعات الجبلية: والتى تتمدد على طول مساحة الأراضى الواقعة فى شرق وجنوب المنطقة، وهى تتصل بالجبال الواصلة إلى كل من الهند والصين.

٣ - وهى المنطقة التى تحتل الجزء الغربى، وهى التى تضم الأنهار وعيون المياه، ولذلك فإنها كانت تضم السكان الحضريين وهى المنطقة التى تضم مدن بخارى وسمرقند التى أصبحت بعد ذلك عاصمة إمبراطورية تيمور لنك.

مغول فارس

ظلت فكرة الغزو العسكرى واحتلال الشام ومصر مسيطرة على عقول المغول، خاصة وأن الهزيمة فى عين جالوت ١٢٦٠م أمام الجيش المصرى أفقدتهم الكثير من هيبتهم وقوتهم فى العالم .

ولذلك نجد أنه منذ أن استطاع هولاكو احتلال فارس / إيران لم تنقطع محاولات الالخانيين من أجل معاودة المحاولة لاحتلال الشام ومصر، ولهذا السبب نجد أنهم عقدوا التحالفات مع الصليبيين، غير أن هذه المحاولات ضاعت سدى لعدة أسباب :

١ - عدم تقديم الصليبيين المساعدات الفعالة للمغول، نظرا لتشكك القادة الصليبيين فى قدرات المغول، خاصة بعد هزيمة عين جالوت، وأيضا نظرا لتعرض القوات المغولية لضربات قاسية موجعة على أيدى الجيش المصرى كما حدث فى عهد بيبرس عندما استطاع أن يوقع بهم الهزيمة فى موقعة البيرة ١٢٧٣م، وأيضا فى موقعة الأبلستين ١٢٧٧م، كما استطاع سلطان مصر الشاب محمد بن قلاوون من إلحاق هزيمة مدوية لهم فى موقعة مرج الصفر عام ١٣٠٣م، ومن ثم انهارت كل محاولاتهم فى احتلال الشام وبسط نفوذهم على مصر، لأن قلاوون عقد معهم صلحا فى عام ١٣٢١ يمنعهم من الاعتداء على أراضى الشام، ثم حدث بعد ذلك أن توفى أبو سعيد اليخان مغول فارس مما أدى إلى تفكك أواصر تلك الدولة، ومن ثم أصبحوا أثرا بعد عين فى المنطقة .

٢ - رغبة الصليبيين فى الاستحواذ على كعكة الشرق الإسلامى بمفردهم.

٣ - شعور الصليبيين أن المغول سيهاجمونهم بعد أن يطمئنوا إلى وضع أقدامهم فى منطقة الشرق الإسلامى.

تيمور وظهور الخطر المغولى

وقد ولد تيمور لنك فى عام١٣٣٦م فى جنوب سمرقند بمدينة كيش، وهو ينتمى إلى عشيرة البرلاس وهى إحدى قبائل المغول الجغطائيين التى هاجرت إلى بلاد ما وراء النهر، واستطاعوا أن يخضعوها لسيطرتهم بالقوة المسلحة.

وقد تحولت هذه القبيلة مع الوقت إلى المغول الأتراك الذين كانوا قد سبقوهم لاستيطان تلك المنطقة .

وكانت دولة المغول الجغطائيين التى سيطرت على مناطق وسط آسيا قد بدأت تدب فى أوصالها عوامل الضعف والانحلال نتيجة زيادة نفوذ القادة العسكريين فى شئون البلاد، وأيضا بداية ظهور التمردات والقلاقل السياسية من السكان المسلمين باعتبارهم أصل سكان تلك البلاد وهؤلاء الغزاة.

وكان العرب قد فتحوا بلاد ما وراء النهر فى عام ٧٠٦م ،ونتيجة لهذا الفتح العربى فإن هذه المناطق خرجت من تحت سلطة ونفوذ الأتراك الشرقيين،وقد أحدثت موجات الهجرة العربية لهذه المناطق تأثيرا كبيرا على العوامل الديموجرافية فى المنطقة، بالإضافة إلى قدرة الديانة الإسلامية على ابتلاع كل العقائد الأخرى التى كان السكان يدينون بها قبل ذلك، وبعد ذلك استطاع الفرس السامانيون حكم البلاد .

استيلاء المغول على ما وراء النهر

مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى وصل المغول بقيادة جنكيز خان إلى بلاد ما وراء النهر، ومن ثم أصبحت تلك البلاد تحت نفوذ الخان.= والذى توزعت تركته بعد وفاته على أولاده، وكانت منطقة ما وراء النهر من نصيب ابنه جغطاى، وقد ظلت تابعة للخان الأعظم الذى كان يتخذ من مدينة قره كوروم فى منغوليا عاصمة له، وبعد ذلك نقلها إلى الصين بعد أن تولى الخان قبلاى زمام السلطة للمغول.

الاستقلال عن الخان الأعظم

حدث هذا الاستقلال من جانب المغول الجغطائيين عن مقر الخان الأعظم بالصين بعد أن تولى الخان الجغطائى دووا مقاليد السلطة على البلاد الجغطائية فى عام ١٢٧٤،ولتأكيد هذا الاستقلال فإنه شيد لنفسه عاصمة جديدة من منطقة فرغانة، وأطلق على المدينة اسم أنديجان، وبعد ذلك تولى ابنه الخان كبك حكم الجغطائيين وأسس لنفسه مدينة أطلق عليها اسم قارشى لتكون مقر حكمه وعاصمة البلاد، وما زال اسم هذه المدينة متداولا حتى الآن وهى تقع على نهر كشقداريا بأذربيجان.

قتل الخان ترماشين

بعد موت الخان كبك تولى قيادة المغـول الجغطائيين الخان ترماشين عام ١٣٢٦م . ولم يمض وقت طويل على اعتـلائه العرش حتى أعلن إسلامه وأطـلق على نفسه اسم علاء الدين، وكان هذا التـخلى منه عن عقائد المغول وشريعة اليـاسا معناه أنه قد تم إهدار دمه من الخان الأعظم للمغول، والذى إن كان قد أغمض الطرف عن الاستقلال السياسى لمغول الجغطائيين إلا أنه لا يرضى عن عملية التحول الدينى التى قام بها ترماشين / علاء الدين، لذلك تم قتله بعـد محاولته الهرب بعد الثورة التى واجهها من كبار رجال حاشيته من المغول.

انقسام دولة المغول الجغطائيين

لم تذكر المراجع الـتاريخيـة من الذى تولى الحكم بعد مـقتل ترماشـين / علاء الدين، فى عام١٣٣٤م لكن الآثار تثـبت أنه تم نقل عاصمة الجغطائيـين إلى منطقة ألماليك الواقعة على نهر إيلى فى منطقة وسط آسيا.

وقد حدثت العديد من القلاقل التى أثرت على وحدة الدولة الجغطائية نظرا لأن مقر العاصمة الجديد كان به العديد من الذين يؤمنون بالمذهب الأرثوذكسى، وأيضا الكثيرون من أتـباع الكنيسـة الكاثوليكيـة ،مما دفعهم إلى شحذ هـمم الحاكم الجديد للجغطائيين لممارسة سياسة التنكيل بالمسلمين .

استمرت سياسة تعقب المسلمين أو اضطهادهم على يد الخان الجغطائى بمساعدة صليبية حتى عام ١٣٤٠م حتى استطاع أحد أمراء المغول المسلمين واسمه خليل من تجميع صفوف المغول المسلمين فى جغطى عن طريق مساعدات قيمة من ملك خراسان المسلم معز الدين آل كرت، مما أدى إلى نجاح مساعى خليل حيث استطاع هزيمة أبناء عمومته وعاد بجيوشه إلى سمرقند حيث اتخذها عاصمة له .

إلا أن المغول الوثنيين من أهالى جغطى بمساعدة الصليبيين والذى كانوا يقطنون المنطقة الشرقية من البلاد قاموا بثورة عارمة ضد خليل، مما أدى إلى انقسام دولة المغول الجغطائيين إلى منطقتين أو إقليمين هما إقليم مغلوستان فى الشرق ويمتد من نهر سيحون إلى منطقة حوض تاريم، والإقليم الآخر هو الممتد من منطقة ما وراء النهر وحتى الغرب .

وقد تم حكم كل إقليم بفرد من العائلة الجغطائية لكنه مختف فى عقائده عن الفرع الآخر، واستمر الصراع فيما بين الإقليمين وأيضا داخل كل إقليم على حدة من أجل الاستحواذ على السلطة به.

وقد رفض ملك خراسان أن ينضوى تحت جناح خليل، وقامت بينهما حروب مريرة لم يستطع خلالها الملك حسين الخراسانى أن يحتل أراضى خليل، لكنه استطاع أن يوقع به فى الأسر فى إحدى المعارك بينهما.

فاتحة الخير لتيمور

كان اختفاء خليل من على سدة عرش المغول الجغطائيين المسلمين فرصة سانحة لأن يعتلى عرش تلك البلاد الأمير قازان وهـو أحد أحفاد جغطاى بن جنكيز خان الذى استطاع أن يقهـر مملكة خراسان ويدحر ملكها، لكنه لم يهنأ كـثيرا بالراحة إذ سرعان ما انقلب عليه قازغان وهو أحد حارس قازان.

وبمجرد نجاح قازغان فى الإطاحة بالخان قازان حتى أتى قازغان بأحد الأمراء من بيت قازان وأقسم له يمين الطاعة والولاء هو ورجـاله، ونتيجة ذلك فإن ذلك الخان - الذى لم يستمر كـثيرا على العرش اذ تم قتله بعد سنتـين- قد ترك أمور ممارسة السلطة فى البلاد فى يد قازغان .

وبعده أحضـر قازغان أميرا جـديدا اسمه بويان، حيث منحـه كرسى العرش، ومن ثم أصبح هو الخـان الجديد للبلاد، واستمر بويان لمدة عشـر سنوات كان فيها قازغان هو الحاكم الفعلى على البلاد .

وقد اسـتطاع قازغـان باعتبـاره الحاكم الفـعلى للبلاد أن يوسع حـدودها حتى وصلت حدود بلاد المغـول الجغطائيـين فى عهده إلى السـند وخراسان حـيث كان قازغان قد شن حربا سريعة خاطفة على مملكة خراسان تأديبا لها على هجومها على بلاده قبل ١٤ عاما مضت.

ثم تم اغتيـال قازغان أثناء رحلة صيـد كان يقوم بها، وكـان المحرض الأساسى على قتل قازغان هو زوج ابنته، لذلك تم تنصـيب الطفل عبد الله بن قازغان بدلا منه .

استمر تغلق تيمور فى فرض سياسته وإحكام قبضته على بلاد ما وراء النهر مستغلا هرب أغلب أفراد قبيلة البرلاس إلى خراسان، ولما استتبت الأمور بين يديه عين ابنه إلياس حاكما عليها، وكان إلياس عديم الخبرة بالشئون العسكرية والسياسية، لذلك ترك أمور تسيير الحكم فى البلاد فى يد المغول.

ظهور تيمور لنك على مسرح الأحداث

كانت وديان أراضى ما وراء النهرين المكان الذى نشأت فيه قبيلة البيرلاس منذ قدومها إلى تلك الارض وقدرتهم على فرض سيطرتهم ونفوذهم على القبائل الأخرى التى نازعتهم العيش فى أراضى الوادى.

لكن بمرور الوقت ونظرا للأحداث السياسية والعسكرية التى مرت على الوادى فإن قبيلة البيرلاس فقدت الكثير من نفوذها على الوادى إلا ما بقى تحت أيديها من مناطق يسكن فيها أفرادها، وقد أصبحت تلك القبيلة تنتسب إلى المغول بعد أن انضموا لراية جنكيز خان بعد اكتساحه أراضيهم، وزادت تلك العلاقة الحميمة بين تلك القبيلة وجنكيز خان بعد أن تزوج واحدة من نسائها كانت هى الجدة العليا لتيمور لنك .

وكان جنكيز خان بذكائه قد منح سكان المناطق التى فتحها فى منغوليا وتركستان وبلاد ما وراء النهرين الكثير من النفوذ حتى يستمروا على ولائهم له، لذلك نجدهم جميعا بما فيهم قبيلة البيرلاس قد حاربوا مع ابنه جوشى أثناء غزوه لروسيا ومناطق القرم المتاخمة لها فى صفوف جماعة الهوردة الذهبية، وبعد ذلك تحول جزء منهم للإسلام وبقى البعض الآخر على وثنيته، وكان من ضمن من دخلوا فى الإسلام قبيلة البيرلاس.

الحاجة إلى زعيم

فى ظل الظروف التى حدثت ومرت بخانية الجغطائيين المسلمين كانت قبيلة البيرلاس ما زالت تتمتع بنفوذ أدبى كبير على الكثير من القبائل الأخرى التى كانت تجاورهم الإقامة فى بلاد ما وراء النهرين.

لكن كان أكثر ما يعيب قبيلة البيرلاس وأيضا الجغطائيين الغربيين هو افتقادهم لزعيم يقودهم حيث كان طرقامى أبو تيمور رجلا مسالما مهتمًا كثيرا بسرد شجاعة وكفاءة أجداده أكثر من حرصه على إثبات ذلك على أرض الواقع.

وقد انعكست حالة طرقاى تلك على أسلوب تنشئته لابنه تيمور، حيث عمل على تربيته وتنشئته نشأة إسلامية، لذلك اهتم كثيرا بتعليمه أصول الشريعة وعلوم الفقه، وقد تولى زعامة القبيلة بعد موت طرقاى أخوه حاجى الذى كان قد قاد الثورة ضد قازغان، لكنه كان فى تركيبته الشخصية العامة لا يختلف كثيرا عن أخيه طرقاى.

نقطة البداية

كانت القبيلة تحت قيادة حاجى عم تيمور تسير من سيء إلى أسوأ، لذا بدأت فى عرض خدماتها على الأمراء مستغلة فى ذلك شهرة أبنائها فى القدرة على القتال، وعلى الرغم من تلك الحالة المزرية التى آلت إليها أحوال القبيلة إلا أن هذا الحال هو السبب فى بزوغ نجم تيمور بن طرقاى الذى سيصبح فيما بعد تيمور لنك.

وقد كان تيمور فارسا شجاعا مغامرا، ويهوى الصيد حيث كان ماهرا فى صيد الثعالب والضباع والطيور خاصة الجارح منها، وقد طبقت شهرته الآفاق فى كل مدينة سمرقند وما جاورها من بلاد.

وبسبب شهرته تلك استدعاه قازغان عندما أحكم سيطرته على خانية الجغطائيين المسلمين، وعند مقابلته له أحسن استقباله وأخبره أنه سيعتمد عليه كثيرا، ولما لاحظ قازغان دهشة تيمور لذلك الذى يسمعه نظرا لاختلاف الديانة فيما بينهم حيث كان قازغان وثنيا، لذلك بادره قازغان قائلا: لقد استعضنا هنا عن الأديان بالأخوة.

وافق تيمور على عرض قازغان فانهمرت عليه الهدايا الثمينة باعتباره، قد أصبح عضوا مهما فى حاشية الأمير قازغان المتحكم فى السلطة فى خانية الجغطائيين فى بلاد ما وراء النهرين، وكانت عيون قازغان ترصد كل تحركات هذا الفارس الشجاع.

واستمر الحال هكذا حتى كانت تقطة البداية لانطلاق شهرة تيمور لنك كفارس محترف عندما أغار بعض البدو على بعض الخيول التابعة لقازغان فكلفه قازغان بضرورة استرجاعها وتأديب هؤلاء الغزاة.

نفذ تيمور لنك الأمر الصادر من قازغان وخرج على رأس عشرة من الجنود

ولحقوا بهؤلاء الغزاة لأملاك قـازغان، وعندما رأى هؤلاء الغزاة تيمور لنك وجنوده يطاردونهم قسـموا أنفسهم لفـريقين، الأول استعـد لمواجهة هجوم تيـمور والقسم الآخر بقى لحراسة الخيول المسروقة والأمتعة المنهوبة.

وكانت رغبة الجنود التابعين لتيمور أن يكون المجهود الرئيسى لهجومهم على من يحرسون المسروقـات، لكن تيمور أمر رجاله بمهاجمـة الفرسان المسلحين، ودارت معركة حامية الوطيس بين الفريقين أثبت فيها تيمور شجاعته كمحارب وقائد يستطيع أن يوجه رجاله فى أرض المعركة، مما أدى إلى مقتل أكثر الغزاة وفر الباقى منهم من أرض المعركة حيث تركوا خلفهم كل ما سرقوه وأيضا الكثير من أمتعتهم الشخصية التى حصل عليها تيمور ورجاله، حيث عادوا إلى قـازغان فى مقر إقامته، ففرح بما فعله تيمور فرحا كبيرا ومن فرط فرحه أعطى لتيمور قوسه وكنانته.

وبسبب هذا الانتصار بدأت العلاقة تتوطد أكـثر بين قازغان وتيمور، وبالاضافة إلى شجاعـة تيمور القتاليـة كان هناك سبب آخر لزيادة عـمق هذه العلاقة وهى أن كلاهما لا ينحدر مباشرة من صلب الخان الأكبر جنكيز خان.

وذلك لأن عرف المغول الذى سنه جنكيز خان أن أولاده الذكور فقط من زوجته الأولى هم الذين لهم حق خلافته فى عرشه هم وأولادهم.

كما كان هناك سبب ثالث يدعو قازغان لتوطيد تلك العلاقة وهو أن قازغان كان يعلم علم اليقين انتـساب تيمور لقبيلة البـرلاس المعروفة بيأسها الشـديد فى القتال، ومن ثم فقد قربه إليه لعله يوما يحـتاج إلى دعم تلك القبيلة والذى لن يأتى بـسهولة إلا عن طريق تيمور باعتباره فارسا شجاعا وابنا للزعيم السابق لتلك القبيلة.

تيمور زوجا لحفيدة قازغان

بعد أن توطدت العلاقة بين تيمور لنك وقازغان بدأ الأخير فى الاعتماد كثيرا على تيمور فى الكثير من الأمور، خاصة فيما يتعلق بوأد الثورات التى حاول بعض الأمراء إشعالها ضد قازغان، وكان النجاح فى كل مرة يلازم تيمور، بالإضافة إلى الكثير من الحكايات التى كانت تتناثر من أرض المعركة والتى توضح شجاعته وبسالته وقوته .

لذلك قرر قازغان أن يزوج تيمور من إحدى حفيداته، وقد اختار له أجملهن، وقد وافق تيمور على اقتراح قازغان وتم الزواج فى عام ٧٥٧هـ، وفى يوم زواجه عينه قازغان قائدًا للألف كما منحه لقب بك .

وهكذا اعتلى تيمور بدايات طريق السلطة بمجهوده، وازداد قربا من قازغان وأصبح يحلم كثيرا بما ينتظره من صعود فى قيادة الجيش، إلا أن كل هذه الأحلام والآمال تبعثرت فجأة بعد اغتيال قازغان على يد كبار قادة جيشه، ومن ثم أصبح عليه أن يبدأ من نقطة البداية بعد أن فقد العون الذى يسانده واليد التى تدفعه للأمام.

وكان من الطبيعى أن يعتلى كرسى القيادة بعد وفاة قازغان ابنه، لكنه كان ضعيفا، فلم يستطع توجيه دفة حكم البلاد لعدم قدرته على كبح جماح طموح حاجى برلاس عم تيمور، والأمير بايان سلدوز، حيث حضر كلاهما على رأس قوة كبيرة من رجاله إلى سمرقند وهما يرفعان شعار سيادتهما على سمرقند، وما زاد الطين بلة أن الاثنين كانا يكرهان تيمور، لذلك بقى محدود الحركة حيث إن

أغلب جنوده وفرسانه تركوه وانضموا لأحد الأميرين اللذين دار بينهما شجار على من منهمـا تكون له القيادة، مما دفع الكثير من قادة جـيوشهم إلى الانسـحاب من تحت قيادتهم وعاد كل قائد إلى الأراضى الواقـعة تحت نفوذه وسيطرته، وقد حاول تيمور استغلال ما حدث لـصالحه إلا أنه فشل فى إقناع كل هؤلاء القادة للانضمام له، حيث فـضل كل واحد منهم البـقاء على أراضيـه مسـتعدا للدفاع عنهـا، وما ساعدهم على هذا هو معرفتهم أن الأمير بايان سلدوز مدمن للخمر ولا يفارقها، بينما حاجى برلاس عم تيمور يهتم فقط بمصالحه ولا يكترث بمصالح البلاد .

تيمور يواجه تيمور

بينما تيمـور بن طرقاى أو تيمور لنك وحيدا وحـوله قلة قليلة من الجنود بعد أن تفرق شـمل بلاد الجغطائيين الـغربية كان تـيمور خان جـغطاى الشرقـية ينظر بكل اهتـمام من وراء الجـبل لكل مـا يحـدث من أمور فى الجـزء الغـربى الذى يدين بالإسلام من البلاد.

لذلك قرر تيمور خان أن يستولى على جغطاى الغربية حيث زحف عليها بجيش جرارٍ لم يستطع رجال وقادة قازغان الذى تم اغتياله من الوقوف أمامه، حيث هرب الكثير منهم بجيـوشهم من البلاد متوجهين إلى خراسـان أو كابول، والوحيد الذى بقى ولم يهرب كان الأمـير بايزيد أمير جلائر والذى كـانت مدينته فى طريق زحف جيوش تيمور خان، وقد تفتق ذهن بايزيد بـأن يستقبل تيمور خان بالورود والهدايا وأن يعلن خضوعه له .

بينما كان حاجى بـيرلاس عم تيمور لنك متخبطا فى قـراراته إذ بعد أن بدأ يعد جيشـه لمواجهـة جـيوش تيـمور خـان قرر الانسـحاب والهـرب إلى أرض هرات بأفغانستان، وأثناء انسحابه أرسل لابن أخيه تيمور لنك يخبره فيه بانسحابه.

وكان السبب فى ذلك أن العم حاجى بيرلاس شعر بازدياد نفوذ ابن أخيه تيمور لنك وسط شباب القبيلة حيث كان يحثهم على محاربة تيمور خان،على الرغم من قلة عددهم لكن لما تأكد تيمور لنك من أن تيمور خان قد استولى على كل البلاد قرر أن يذهب بنفسه لمقابلة تيمور خان.

لكن قبل أن يذهب لتلك المقابلة قام بإرسال زوجته وابنهما إلى إمارة أخيها بأفغانستان، وبعد ذلك قام بتجميع كل ما يملك من مجوهرات وذهب ومال وخبأهم فى مكان أمين، بعد ذلك ظهرت أمامه خيول تيمور خان فأحسن تيمور لنك وفادة قادتها ،حيث لبى كل طلباتهم وأخبر قائدهم عن شخصيته وأنه يريد الذهاب لمقابلة تيمور خان .

وصل تيمور لنك إلى مقر إقامة تيمور خان- الذى كان جالسا وسط حشد كبير من أمرائه وقادة جيشه - ومعه الكثير من الهدايا التى تليق بمقام الخان تيمور، والذى كان يمثل النموذج الحى لأجداد تيمور لنك من حيث الشكل والهيئة والقوة.

وقد عرف تيمور لنك بنفسه لتيمور خان وكان أبرز ما نسبه لنفسه هو أنه قائد قبيلة البرلاس فى سمرقند، تلك المدينة الخضراء الجميلة، ثم أردف قائلا مستمرا فى حديثه لتيمور خان أنه كان يأمل ويتمنى أن يكون مالكا للكثير حتى تتناسب الهدية مع أهمية الخان تيمور، وبينما بدت تلوح بوادر ابتسامة على وجه تيمور خان استمر تيمور لنك فى حديثه، حيث أخبر تيمور خان بأن ثلاثة من ضباطه أشبعوا شهوة طمعهم بسلب الكثير مما كان معه على الرغم من أنه أخبرهم بأن هذه الأشياء الثمينة ما هى إلا هدايا بسيطة لتيمور خان، فى تلك اللحظة قاطع تيمور خان حديث تيمور لنك حيث أصدر أمرا بضرورة إلقاء القبض على هؤلاء الضباط لاسترداد ما سرقوه، ثم أمر تيمور لنك بالذهاب إلى الراحة فى إحدى الخيام.

وبمجرد أن خـرج تيمور لنك من قاعـة تيمور خان حـتى بدأت الأحاديث تدور بين الخان الكبيـر ورجاله فى أمر تيمور لنك وما يجب عمـله معه، وكان هناك رأى يمثل أقلية بالنسبـة للمجتمعين يرى أنه لابد من التخلص من تيـمور لنك بينما كان رأى الأغلبية يصب فى مصلحـة تيمور لنك حيث أجمعوا على ذكائـه، وشجاعته، وأنه لا خوف منه، حـيث إن كل جيش سمرقند وخيـرة أمرائها ورجـالها هاربون، ومن ثم فإن تيمور لنك الوحيد لن يسبب لهم أية مشاكل.

وفى نفس الوقت تقريبا وصلت أخبار إلى مقر تيـمور خان تخبره بأن الفرقة التى خرجت للقبض على الضباط الثلاثة لم تستطع النجاح فى مهـمتها لتعرضها للهجوم من جانب قـوات الضباط الثـلاثة، وأنهم بذلك رفعـوا راية العصيـان والثورة على تيمور خان، وأنهم ينوون عبور الحدود إلى بلادهم لإشعال نار الثورة الشعبية ضده أى ضد تيمور خان.

نزلت تلك الأخبار وقع الصـاعقة على تيمور خان وكل أفراد حـاشيته، ودارت بينهم المناقـشات التى كان مـحورها الأسـاسى ما هو رد الفعل الذى يجـب عليهم عمله لتحاشى قيام الثورة فى جـغطاى الشرقية، ولما زادت المناقشات عن حدها ولم يستطع المجتمعون الوصول إلى قرار قرر تيمور خان استدعاء تيمور لنك لاستطلاع رأيه فى هذا الأمر.

عندما وقف تيـمـور لنك بين يدى تيمور خان كانت الأفكار تتـصارع فى رأسه، وكانت أغلب تلك الأفكار تدفع تيـمور للخوف من تيمـور خان إلا أن هذا الخوف انقشع وتبدد بعدما أخبره تيمور خان بسبب استدعائه.

لم يطل تفكير تيـمور لنك كثيـرا، إذ سرعان ما أخـبر تيمور خـان بأن الحكمة تدفعه إلى ضـرورة الانسحاب بكل جيـشه عائدا إلى بلاده حتى يتسـنى له القضاء على الثـورة التى يريد الضبـاط الثلاثة إشعـالها، وكـما أخبـره أن بقاءه وقـواته فى

سمرقند معناه أنه سوف يتعرض لخطرين من الأمام ومن الخلف، والمقصود بهما خطر مقاومة أهل سمرقند للاحتلال، بالإضافة إلى الخطر الذى ستتعرض له قوات تيمور خان فى حالة نجاح الضباط الثلاثة فى إشعال نيران الثورة فى جغطاى الشرقية.

كما لم يطل تفكير تيمور لنك للوصول إلى هذا الحل لم يطل أيضا تفكير تيمور خان للاقتناع بهذا الرأى لذلك قرر الانسحاب بقواته إلى جغطاى الشرقية، وقبل الانسحاب أصدر تيمور خان قرارا بتعيين تيمور لنك قائدا فى جيش جغطاى المتحدة برتبة تومان باشى، وهذا يعنى أنه قائد على جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل، وأعطاه خاتما رسميا بذلك، وسلمه أيضا وثيقة ملكية تثبت رتبته العسكرية وتحدد سلطته.

الأمير تيمور لنك

بانسحاب جيوش تيمور خان من سمرقند أصبح تيمور بن طرقاى أو تيمور لنك أميرا على كل بلاد ومدن منطقة ما وراء النهر، وقد زاد حب الناس له لقدرته على إنقاذ مدنهم وبلادهم من الخراب الذى كان ينوى تيمور خان أن يفعله بهم.

لذلك التف الناس حول تيمور لنك وساعدوه فى مهمته التى اختاره لها تيمور خان، لكن بمجرد أن بدأ يشعر أن الأمور قد بدأت تستقر فوجئ بعودة الأمراء الذين فروا من مواجهة تيمور خان الواحد تلو الآخر، وقد أحسن تيمور فى كل الأحوال استقبال هؤلاء الأمراء.

وكان من ضمن هؤلاء الأمراء العائدين عمه حاجى البيرلاسى الذى بدأ فور

حصـوله على قسط من الراحـة هو ورجاله التحـالف مع الأميـر بايزيد الجلائرى، وكان الغرض من هذا التـحالف هو القضاء على حكم تيمور لنـك والانفصال مرة أخرى عن سلطة تيمور خان، وللعـمل على تحريك تميور لنك فى المصيدة التى تم إعدادها له لاصطيـاده قرر بايزيد إعلان نفسـه حاكما عامـا على كل بلاد ما وراء النهـر، وذلك بمساعـدة ودعم من حـاجى برلاس، وفى نفس لحظة إعـلان بايزيد لنفســه حاكمـا عاما على البلاد أرسل مـندوبا عنه يطلب من تيمور لنك الحـضور لاجتماع يضمه مع بايزيد وعمه حاجى ليتشاور الثلاثة فى كيفية حكم البلاد، وأيضا مناقشة كيفية الانسلاخ عن سلطة تيمور خان دون إثارته حتى لا يحاربهم بجيشه.

وصل تيمور لنك إلى المكان المخـصص للاجتماع حيث استقـبله بايزيد بترحاب زائد ثم طلب منه أن يترك سلاحه الشخصى خارج خيمة الاجتماع، وأن لا يدخل أحد معـه من أعوانه، تراقص الشك فى عقل وقلب تيـمور لنك إلا أنه وافق على كل ما سمعه من بايزيد، لكنه دخل إلى الخيمـة والحذر هو رفيقه الوحيد لأنه توقع أن يصيبه مكروه منهما.

صدق حدس تيمور لنـك إذ كان عمه حاجى جالسا فى أقصى الخـيمة المفروشة بالسجاد الوثير وجلس بايزيد فى أقـصى النقطة المقابلة لحاجى، وطلب منه الاثنان أن يجلس فى منتصف الـسجادة فأدرك تيـمور أن هذا كمـين للقضاء عليـه، وأظهر موافقته على طلبهم.

وقبل أن يصل إلى المكان الذى حـدداه لجلوسه تظاهر بالسعـال الحاد وخرج من الخيمـة حيث اتجه مسرعا إلى مكان جنـوده وضباطه فامتطى جواده وعـاد إلى مقر إقامته.

وبعـد فشل تـلك المحاولة للـتخلص من تيـمـور لنك دب الخـلاف بين بايزيد وحاجى، وكاد حاجى أن يقضى على بايزيد الذى انسـحب بقواته على مدينته تاركا

سمرقند لحاجى الذى قرر القضاء بالقوة المسلحة على تيمور لنك، مما دفع تيمور إلى مواجهة جيوش عمه، وكالعادة أثبت تيمور كفاءة قتالية عالية وقدرات قيادية فائقة مما اضطر معه حاجى إلى الانسحاب.

ظن تيمور بمجرد انسحاب قوات عمه من أمامه أنه قد أحكم ثانية قبضته على البلاد إلا أنه فوجئ مع ظهيرة اليوم التالى لانتصاره أن أغلب جنوده وضابطه قد انضموا لجيش عمه الذى أغراهم بالعودة إلى سلطة القبيلة إذا ما عادوا إليه.

لذلك لم يكن أمام الأمير تيمور لنك سوى الانسحاب إلى مدينة ترمذ الواقعة على نهر أموداريا، ومن ثم كان مجبرا هناك على ضرورة التحالف مع شقيق زوجته الأمير حسين، وكان تيمور يخشى أطماع حسين فى سمرقند بصورة خاصة وبلاد ما وراء النهر بصورة عامة، وبالتالى أرسل رسالة عاجلة لتيمور خان شرح له فيها كل ملابسات الموقف وختمها فى النهاية بضرورة أن يأتى على رأس جيشه وبأقصى سرعة، حيث إن القتال قد بدأ ينشب بين الجميع.

ثار تيمور خان ثورة عارمة بعد قراءته لرسالة تيمور لنك وتحرك على رأس جيشه بسرعة باتجاه سمرقند وقد قرر أن يقضى على الأخضر واليابس، وكان أول شىء فعله أثناء مروره على إمارة بايزيد أن دمر جيشه ثم قتله.

وفى هذه الأثناء حاول الأمير حسين أن يستثمر ما يحدث لصالحه تحقيقا لمطامعه فى أن يستعيد ميراث جده قازغان فى حكم بلاد ما وراء النهر، لذلك استدار ناحية تيمور خان واشتبك الجيشان فى معركة بدأت أولى مراحلها بالندية بين الجيشين ثم سرعان ما خارت قوى الأمير حسين فهرب من أرض المعركة باتجاه خراسان ليتجه منها إلى مقر إمارته بكابول .

وبمجرد أن انتهى تيمور خان من أمر الأميـر حسين طارد جيوش الأمير حاجى عم تيمـور لنك وكعادة حاجى فـإنه آثر الانسحاب من أرض المعركـة فوقع بأيدى مجموعة من قطاع الطرق سلبوه أمواله ثم قتلوه.

وأثناء كل تلك الأحـداث كان تيمـور لنك معسكرا بقـواته فى سمـرقند للدفاع عنها، حيث كانت تلك هى حجته أمام تيمور خان رغم أن الواقع كان يقول أنه أبعد نفسـه عن أى معارك حـيث جعل الجميع يـتقاتلون ويهربـون ويقتلون، وبذا تخلو الساحة أمـامه نظرا لعدم وجود أى منافس مـحلى يناوئه السلطة، وفى نفس الوقت يظل محتفظا بالعلاقات الودية التى تربطه بتيمور خان .

وقد تحققت آمال تيمور لنك إذ كان على رأس المستقبلين لتيمور خان أثناء دخوله على رأس جيوشه لسمرقند، وعند دخوله إليها كانت الأحوال الأمنية فيها مستقرة، لذا عمد إلى تقريب تيمور خان منه.

وأثناء ذلك حاول بايـان سلدوز إثارة بعض القلاقل، فتكفـل تيمور خـان بقتله، وبذلك أخلى الطريق تماما من أى منافـس محلى لتيمـور لنك الذى عادت شعبيـته للارتفاع وسط القبائل الساكنة فى سمرقند، وخاصة قبيلته البرلاس لقدرته لثانى مرة على المحافظة على مدينتهم الخضراء الجميلة من هجوم جيوش تيمور خان.

بعد أن هدأت الأوضاع قرر تيمور خان أن يحكم قـبضته بالكامل على سمرقند وما حولهـا من بلاد ما وراء النهر، لذلك قـام بتعيين ابنه إليـاس نائبا عنه فى حكم بلاد ما وراء النهر، وقرر أن يكون قائد عام جيـوش الجغطائيين الشرقيين هو القائد بيكيجيك أما بالنسبة لتيمور لنك فقد عينه أميرا وحاكما عاما لسمرقند.

وبعد الشكر على الثقة التى أولاها له تيمور خـان اعترض تيمورلنك على عمله تحت إمرة الجغطائيين الوثنيين فقام تيـمور خان بتذكيره بعرف المغول فى الحكم الذى

وضعه جنكيز خان، وهو أن يكون الحكم بيد أولاده وأحفاده المنحدرين من زوجته الأولى بورتاى، وأن على الإخوة الآخرين وأبناؤهم أن يعملوا تحت حكم أبناء الزوجة الأولى.

لذلك سكت تيمور لنك ولم يعلق، حيث إن ما قاله تيمور خان إن هو إلا التطبيق العملى للاتفاق الذى تم قديما بين كابول الجد الأعلى لجنكيز خان وتغلق خان والد تيمور خان وشقيقه قجولاى الجد الأعلى لتيمور لنك.

تيمور لنك نصيرًا للضعفاء

غادر تيمور خان سمرقند وبلاد ما وراء النهر وقد أصبح تيمور لنك أميرا عاما على سمرقند، وقد حاول قدر جهده أن يتعايش مع إلياس بن تيمور خان وأيضا مع بيكجيك فى محاولة منه لعدم الصدام مع أى منهما، خاصة فى ظل ضعف شخصية إلياس وقلة خبرته بالحياة السياسية أو العسكرية، وبالتالى تصاعد نفوذ بيكجيك لكونه الحاكم العام الفعلى لكل بلاد ما وراء النهر.

وكان بيكجيك يتسم بسوء الخلق والفظاظة والغلظة فى التصرفات، وهو ما ظهر جليا من خلال معاقرته للخمور فى الشوارع وقيامه باختطاف أى سيدة تعجبه، بالإضافة إلى اعتدائه على رجال الدين الإسلامى، مما دفع تيمور لنك إلى إرسال الخطابات المتتالية إلى تيمور خان يخبره فيها بما يحدث على أرض الواقع لحظة بلحظة.

وكان رد فعل تيمور خان على هذه الخطابات هو لامبالاته بها، وحدث أن تم اختطاف الكثير من بنات سمرقند العذارى وأعداد غفيرة من رجال الدين

الإسلامى، حيث قرر بيكجيك أن يتم بيعهم فى سوق الرقيق كعبيد، فجرت جموع الناس إلى تيمور لنك ليتحرك لإنقاذ هؤلاء المخطوفين، فذهب إلى إلياس طالبا منه أن يأمر بيكجيك بالإفراج عن هؤلاء الأسرى فما كان من إلياس إلا أن أخبره بأسلوب دبلوماسى أنه لا يملك من الأمر شيئا.

بعد أن خرج تيمور لنك من مجلس إلياس انطلق وجمع جنوده وانطلق يقودهم لتحرير كل أسير تم أسره من رجال الدين والفتيات، وقد نجح تيمور لنك فيما خرج له عن طريق القوة المسلحة.

أرسل إلياس بخطاب إلى والده يخبره فيه أن تيمور لنك قد شق عصا طاعته فى سمرقند، وأنه يقود ثورة مسلحة ضده، وأنه أعلن لمن حوله أنه سيتجه بجيوشه إلى حيث يوجد تيمور خان ليحاربه ويقتله، ويصبح هو حاكما على كل بلاد الجغطائيين، ونتيجة لذلك أصدر تيمور خان قرارا يقضى بضرورة إلقاء القبض على تيمور لنك ثم إعدامه بعد ذلك.

علم تيمور لنك بالقرار الذى أصدره ضده تيمور خان، لذلك قرر أن لا يعود إلى مقر إقامته، وأن يهرب إلى الجبل يحتمى به، وكان هذا القرار من تيمور لنك سببا فى أن يظهر أمام العامة من الشعب فى صورة نصير الضعفاء وحامى حمى رجال الدين.

الاتحاد مع الغريم

استقر تيمور لنك فى الجبال مختبئا من جنود تيمور خان، وأرسل خفية إلى أحد علماء الدين بمكان إقامته لينقل له الأخبار، لم يمض وقت طويل حتى كان عالم الدين قد أرسل لتيمور بنصيحة أن يتحالف مع أخى زوجته الأمير حسين والمتواجد أيضا فى نفس المنطقة بعد هزيمته من جيش تيمور خان.

التقى تيمور لنك مع الأمير حسين حيث قرر الاثنان ضرورة الوصول إلى خوارزم نظرا لعدم وجود أتباع كثيرين معهم فى الجبل.

وكان الأمير حسين لا يحب تيمور لنك لكن بمجرد أن رآه استقبله استقبالا طيبا، مما زاد من حيوية تيمور الذى رأى فى حسين حليفا رائعا لكونه ملكا فى كابول، بينما كان حسين يريد الاستفادة من القدرات القتالية والمهارات القيادية التى يمتلكها تيمور.

الوقوع فى الأسر

بعد أن قرر تيمور لنك والأمير حسين السفر إلى خوارزم قرروا أن يسلكوا طريق القوافل المار بالمدن الكبيرة على الطريق الموصل إلى خوارزم من ناحية البحر - حر خوارزم وحاليا بحر آرال - وأثناء اقترابهم من مدينة خيفا قرر حسين أن يدخلها ويجتمع مع حاكمها لسابق صداقة بينهما.

وصل تيمور لنك وحسين إلى حاكم خيفا الذى أحسن استقبالهم وكان هذا الاستقبال الرائع منه دافعا لأن يعرض الأمير حسين على توكيل بهادور - حاكم

خيفا - الاشتراك معهم فى الثورة على المغول الجغطائيين الوثنيين بقيادة تيمور خان، لكن توكيل رفض عرض حسين على الفور، بل سعى للغدر بهما عن طريق اعتقالهما، ولما شعرا بنيته تلك فرا هاربين وسارعا إلى حيث زوجتيهما وأيضا التابعين لهم من الجنود والذين كان عددهم لا يزيد عن ستين فردا.

قرر تيمور لنك أن يتجه إلى مدينة أوركنج وهى ثانى مدن خوارزم، لكن توكيل بهادور أرسل خلفهم ألف فارس لإلقاء القبض عليهم حيث كان ينوى بعد أن يقبض عليهم أن يرسلهم إلى تيمور خان للحصول على المكافآت السخية منه، بالإضافة إلى توطيد مركزه ووضعه عند الخان.

وقد جرت معركة بين رجال توكيل وتيمور ورفاقه قليلى العَدَد والعُدَد، وللمرة الألف يثبت تيمور لنك قدراته العسكرية الرفيعة، حيث استطاع أن يهرب هو وحسين وزوجتيهما من أيادى جنود وضباط توكيل،لكن هذا الهرب الذى حدث يعد مناورة عسكرية كبيرة كان من نتائجه خسارة تيمور لنك لكل الجنود الموالين له، وكانوا يرافقونه فى تلك الرحلة العصيبة حيث قتلوا جميعا على يد رجال توكيل.

بعد أن بعد تيمور لنك وحسين عن أرض المعركة جلسا ليستريحا ويتدبرا أمرهما، وكانت النتائج النهائية للمناقشات التى تمت بينهما أن كل واحد منهما يجب أن يسير وحيدا خشية أن يتم اكتشاف أمرهما ثانية على أن يلتقيا فى خراسان.

ومع بزوغ أول ضوء للفجر تحرك تيمور منفردا وبصحبته زوجته وخادمه، وأثناء سيرهم فى الصحراء قابل بعض الرعاة فاستفسر منهم عن أقصر طريق يؤدى به إلى خارج الصحراء، فنصحه الرعاة بالسير فى الطريق المواجه له حيث أخبره الرعاة أن بعض التركمان يسكنون على طول هذا الطريق.

استكمل تيمور سيره ووجد فعلا بعض الخيم والأكواخ لكنهما كانت خالية من السكان، وعندما تجول بينهما لاستطلاع الأمر تجمع حوله بعض التركمان ظنا منهم

أنه لص أو قاطع طريق، مما اضطر معه تيمور إلى الاشتباك بالسلاح مع من يهاجمونه، وقبل أن تزيد المسألة على الأرض أصدر زعيم التركمان أمرا لرجاله بالتوقف عن القتال واتجه مسرعا ناحية تيمور لنك مرحبا به وهو يقول بأعلى صوته لأفراد عشيرته: إنه سيد ما وراء النهر.

تجمع التركمان حول تيمور وهم يعلنون أسفهم له، ثم قدموا له الطعام والشراب، وفى مقابل ذلك أعطى تيمور لنك لزعيمهم ياقوتة كبيرة، وكذلك بعض الملابس المرصعة باللآلئ، وأخبرهم أنه سيغادر المكان مع حلول الصباح، فأعطاه زعيم التركمان ثلاثة من أفضل وأقوى الخيول التى يمتلكها، كما منحه أيضا مرشدًا ليدلهم إلى أقصر طريق نحو الجنوب.

استمرت تلك القافلة الصغيرة التى يقودها تيمور على سيرها المتصل فى الصحراء لمدة ١٢ يوما حيث وجدوا قرية خربة، فقرر أن يستريح بها قبل أن يستكمل رحلته، لكن لم يمض وقت طويل حتى كان بعض رجال القبيلة المجاورة للمكان الخرب الذى توقف فيه تيمور قد شاهدوهم فداهموهم وأخذوهم أسرى لشيخ قبيلتهم.

كان اسم زعيم القبيلة التى أسر رجالها تيمور هو على بك الذى تعرف على تيمور فقفزت فى رأسه فكرة أن يساوم تيمور خان على تسليم تيمور لنك له. لذلك أمر رجاله أن يحبسوهم فى مكان أمين وعين عليهم حراسة مشددة.

وقد علم أخو على بك بما يفكر فيه أخوه فنصحه ألا يتدخل فى الأمور ما بين تيمور لنك وتيمور خان، وحثه على ضرورة إطلاق سراحه.

نفذ على بك نصيحة أخيه وأخلى سبيل تيمور لنك وزوجته وخادمه ومرشد الطريق، لكنه لم يعطه أى شىء مما تم سلبه منه بل احتفظ بأحصنتهم وأعطاهم حصانًا واحدًا تبدو عليه ملامح الهزال والتعب والإرهاق.

تجميع الرجال

بمجرد أن أفرج عنه على بك سار تيمور لنك باتجاه نهر أموداريا حيث التقى هناك ببعض من أخلص خلصائه وكان عددهم ١٥ رجلا، وقرر أن يعبر نهر أموداريا للذهاب إلى سمرقند حيث أوصله تفكيره أن ذهابه إليها هو الأكثر أمانا له، حيث لن يخطر ببال رجال تيمور خان أنه سيختبئ فيها، لكن قبل أن يواصل سيره أرسل زوجته عند بعض الأقرباء الذين يعيشون بجوار ضفاف نهر أموداريا مع وعد منه بإرسال رسله لإحضارها له فى كابول.

ومع حلول المساء كان قد استطاع أن يعبر النهر، وأصبح على بعد خطوات من المدينة التى يبحث كل من فيها عنه، ودخلها متخفيا أثناء خروج الناس من المساجد بعد أدائهم لصلاة المغرب، واتجه مباشرة إلى منزل أخته قتلغ توركان رغم الحراسة الشديدة المفروضة على دارها من رجال إلياس بن تيمور خان الذى كان قد أحكم قبضته على المدينة.

وقد وجد أن إلياس قد ترك لجنوده العنان فى التنكيل بالسكان وإعمال عمليات النهب والسلب لدورهم وأموالهم.

لذلك جال بخاطره أن يقوم بتجميع أكبر قدر من الرجال ويشعل نار الثورة بهم، لكن بعض من المقربين له منعوه من تنفيذ تلك الفكرة، لأن فرص نجاحها ضئيلة، كما أخبروه أن رجال إلياس عرفوا بوجوده فى المدينة، وهذا معناه أنهم فى طريقهم للقبض عليه إن لم يكن عاجلا فإنه بالضرورة آجلا.

ونتيجة سماعه هذه النصيحة خرج من سمرقند مساء متجها إلى المدينة الخضراء، وبمجرد وصوله بدأ الأنصار يتوافدون عليه إلى أن وصلهم عددهم إلى ألف رجل قادر على حمل السلاح، وكان أغلب هؤلاء المناصرين له من قبيلته.

شعر تيمور أنه قد أصبح مالكا للقوة التى تمكنه من مواجهة غطرسة إلياس، كان المقربين منه نصحوه بالتروى والهدوء، وطلبوا منه أن يسافر إلى قندهار بالقرب من كابول، حيث إن الأمير حسين قد وصل إليها فى طريقه إلى مملكته بكابول، فوافقهم تيمور على هذا الرأى.

مشاكل الطريق

كان على تيمور لنك ورفاقه أن يعبروا الطريق الجبلى الوعر فى قمة جبال هندوكوس، بالإضافة إلى تعرضهم للكثير من غارات سكان القبائل المتناثرة على طول الطريق مما كان يجبر تيمور لنك على الوقوف لمواجهة هؤلاء المهاجمين، وقد استطاعوا فى كل مرة أن يحرزوا النصر ويشتتوا شمل مهاجميهم، وكان من نتيجة تلك الانتصارات أن ازداد تيمور ورفاقه غنى نتيجة الأسلاب التى غنموها من المهاجمين بالإضافة إلى اكتسابهم للكثير من الأنصار .

وعلى الطريق السهلى الموصل إلى قندهار وجد تيمور جيوش حليفه الأمير حسين بانتظاره، وكان جيشه يتكون من حوالى ٤ آلاف جندى وجيش تيمور قد أصبح ألفين من الجنود .

اكتساب الانتصار

بعد أن التقى الحليفان ببعضهما البعض بعد رحلة طويلة من المعاناة قررا أن يستريحا من طول الرحلة التى خاضها كل منهما بالإضافة إلى بدء هطول الأمطار والثلوج، ومع نهايات فصل الشتاء استنجد الأمير جلال الدين محمود أمير منطقة السيستان بصديقه الأمير حسين وكذلك تيمور للوقوف معه فى وجه الثورة التى نشبت ضده من شعبه، وقد تعهد جلال الدين بدفع المال الكثير لهما إذا ما ساعداه.

بمجرد إتمام الاتفاق اتجه تيمور لنك وحسين بجيوشهما إلى المناطق التى بها الثورة حيث استطاعا اقتحام الحصون التى يتحصن بها المتمردون، وبمجرد تحقيقهما للنصر الذى يريده جلال الدين محمود توقف تيمور عن القتال حيث أمر جيشه بالخلود للراحة عكس حسين الذى أمر رجاله بالقيام بأعمال سلب ونهب لكل القرى والمدن التى يدخلونها .

وقد أثارت تلك الأعمال من جنود حسين حنق الأمير جلال الدين خاصة بعد أن لاحظ أن حسين يترك الحاميات العسكرية فى كل قرية أو مدينة يدخلها، لذلك انسحب من الحليفين متسترا بجنح الظلام وعاد إلى شعبه حيث انضم بقواته إلى صفوف المتمردين عليه، وقرر أن يهاجم جيوش حسين وتيمور لنك.

وفى هذه المعركة أصاب تيمور سهم فى يده وأصابه آخر فى فخذه، ورغم ذلك تغاضى تيمور عن تلك الإصابات التى لحقت به، وقبل أن يحل الليل كان جلال الدين محمود قد منى بهزيمة ثقيلة، وهذا ما زاد من الغنائم التى غنمها كل من تيمور لنك وحسين.

وجدير بالذكر أن تلك الإصابة التى لحقت بتيمور لنك فى فخذه كانت السبب الرئيسى والوحيد لإصابته بعرج دائم فى رجله وهو ما دعا أعداءه فيما بعد ليطلقوا عليه لقب انك: أى الأعرج، ولذلك أصبح اسمه ابتداء من عام ١٣٦٣م هو تيمور لنك- الأعرج - اتفق حسين وتيمور لنك على الافتراق، حيث اتجه حسين إلى مملكته السلبية التى يحكمها واحد من الجفطائيين نيابة عن تيمور خان وذلك بغرض تحريرها.

بينما بقى تيمور لنك فى أرسوف بجوار قندهار ليستكمل مداواة جراحه، بالإضافة إلى إراحة جيشه، وأيضا استقبال المزيد من الأتباع الذين يريدون الانضمام إليه لكونه يمثل الأمل الوحيد لهم القادر على الوقوف فى وجه إلياس وأبيه تيمور خان بعد أن زادت حدة أعمالهم الوحشية لسكان بلاد ما وراء النهر.

وقد استغل تيمور لنك توقفه فى أرسوف وازدياد عدد قواته يوما بعد يوم فى العمل على توسيع المناطق التى يبسط عليها نفوذه وسلطانه بغرض تأمين إمدادات الطعام لجنوده الذين وصل عددهم إلى عدة آلاف، وقد كان من الذكاء فى هذه المرحلة بأنه لم يحاول أن يضر بمصالح سكان هذه الأراضى، أو أن يثير حفيظتهم ضده، لذلك تجاوب سكان هذه المناطق معه، وأصبحوا يمدون قواته بكل ما تحتاجه من مأكولات مقابل حصولهم على ثمن ما يقدمون.

كل الأمور فى صالح تيمور لنك

أثناء عودة الأمير حسين إلى كابول لاستعادة ملكه من يد المغول الجغطائيين كان منتشيا بالانتصارات والأسلاب التى حصل عليها فى السيستان لذلك دخل فى معركة مع أحد جيوش المغول الموجودة بالشمال على طريق كابول وكان يعتقد أن النصر حليفه، لكن الرياح أتت لما لا تشتهيه نفسه على أرض المعركة، إذ تعرض لهزيمة قاصمة زلزلت كيان جيشه، وقد وصلت تلك الأخبار إلى تيمور مما دفعه إلى التحرك بقواته فى محاولة منه للم شمل هذا الجيش المشتت، وأيضا لغرض آخر فى نفسه وهو أن يضم جيش حسين إلى قواته.

وقد نجح فى مسعاه، إذ أحكم قبضته على جيش حسين ومنعه من الهرب إلى الجبال أو الانزواء بين المزارعين، وفى اليوم الذى قرر فيه أن يعود مرة أخرى إلى مقر تمركز قواته استيقظ من نومه مبكرا وكان معسكرا على ضفة أحد الجداول حيث أبصر على الضفة الأخرى مجموعة كبيرة من الجنود وكان اتجاه سيرهم يدل على أنهم قادمون من بلخ، وهى إحدى المدن الواقعة تحت سيطرة تيمور خان، لذلك أسرع بإيقاظ رجاله، وامتطى جواده واتجه إلى تلك القوة المسلحة محاولا التعرف عليهم، وعندما اقترب منهم وأصبح فى مرمى رؤيتهم سألهم عن وجهتهم وعن المكان الذى أتوا منه، فأخبره قائدهم أنهم من حاشية الأمير تيمور لنك، وأنهم يبحثون عنه منذ مدة وفى كل مكان يعرفون أنه سيصله يذهبون إليه لكنهم يجدونه قد غادره، لم يتعرف تيمور لنك على شخصية محدثه لكنه أخبره أنه يقدر على توصيلهم بتيمور.

قادهم تيمور لنك إلى مقر إقامته، وبعد أن وصلوا إلى مقر إقامته وسط رجاله وجنوده كشف لهم عن شخصيته، ففرحوا جدا وأخبروه عن أنفسهم حيث كانوا ثلاثة من أهم رؤوس الأفخاذ فى قبيلة البرلاس، ثم أقسموا له يمين الولاء والطاعة، وقد كانت قوتهم عبارة عن ثلاثة كتائب من الفرسان بالإضافة إلى العديد من جنود المشاة .

وهكذا لعبت الأقدار دورا هاما فى صالح تيمور لنك إذ زاد عدد أتباعه المخلصين بانضمام الكثير من أفراد قبيلته له، بالإضافة إلى أن الخسارة التى لحقت بحليفه الأمير حسين قد أتت على الكثير من السمعة العسكرية لهذا الأمير، مما زاد من قدر تيمور فى أعين جنوده، بالإضافة إلى أن كل أفراد الشعب فى سمرقند والمدينة الخضراء وأغلب مدن بلاد ما وراء النهر كانوا فى انتظار تيمور ليقودهم باعتباره أملهم الوحيد، وفى نفس الوقت القادر على الوقوف فى وجه طغيان وجبروت إلياس بن تيمور وكذلك تيمور خان.

الانتصار على بيكجيك

أمضى تيمور لنك الوقت فى الراحة وتدريب الجنود، بالإضافة إلى اهتمامه بتمام شفائه من الإصابات التى لحقت به فى حرب السيستان، خاصة وأن جيشه أصبح يزيد عدده عن ستة آلاف فارس.

وذات يوم وصلته أخبار مؤكدة من رجاله المتمركزين فى نقاط المراقبة التى أقامها على مقربة من شواطئ نهر أموداريا تؤكد أن جيشا من المغول الجغطائيين بقيادة بيكجيك تتحرك بموازاة الشاطئ الشمالى للنهر وهو الشاطئ الآخر المواجه للشاطئ الجنوبى الذى يعسكر فيه تيمور بجنوده، وكان هذا التحرك يعنى أن قوات بيكجيك

خرجت من مدينة قارش - المدينة الخضراء - وأنه فى طريقه قد اجتاح مدينة ترمذ.

كمـا أكدت تلك الأخبار أن العـديد من أمراء المدن فى بلاد ما وراء النهـر قد أعلنوا تحالفهم مع إلياس بـن تيمور خان، وأنهم تعهدوا له أن يقومـوا بتسليم تيمور لنك والأمير حسين له، وقد كان جيش بيكجيك يتكون من عشرين ألف مقاتل.

أمر تيمـور لنك جيشه بالتـأهب، ثم أخذه وسار به على الشاطئ مـوازيا لحركة سير قـوات بيكجيك، وقد أسـرع تيمور فى سيره للوصول بمقدمات جـيشه إلى الجسر الذى يربط بين ضفتى النهر، وكان هذا الجسـر مقاما على أكثر المناطق ضيقا فى المجرى المائى للنهر، ونجح تيمور لنك فى مسـعاه، وتوقف بجيوشه عند الجسر ولم يحاول أن يعبره للوصول إلى الضفة الأخرى من النهر - الضفة الشمالية .

وصلت قوات بيكجـيك وعسكرت أمام الجسـر فى الضفة الشمالـية ولم يحاول بيكجيك العبور من أجل الاشتباك مع تيمور لنك .

مرت الأيام والوضع لا يتـغير، فقـرر تيمور لنك أن يخـدع بيكجيك عن طريق عبوره بقـواته بهدوء مستغـلا ظلام الليل من أجل أن يحتمى بمجمـوعة من التلال التى تكون شكل نصف دائرة بمواجهة النهر وتقع خلف المكان الذى تعسكر به قوات بيكـجيك، وكان قـد ترك مجـموعة من جنوده لا يزيـد عددها عن ٥٠٠ فارس لحماية رأس الجسر، وأمرهم بأن ينتشروا بحيث يبدون لمن ينظر لهم أنهم أكثرية.

عندمـا بزغ نور الفجـر عرف بيكجـيك من آثار الخيـول على الأرض أن هناك عملية عبور ليلية قد تمت من قبل قـوات تيمور لنك وعندما نظر إلى الضفة الجنوبية للنهر وجد القوات التى كان تيمور قد تركها لحماية رأس الجسر تنتشر بعمق كبير مما أثار شكوكه فى انضمام بعض الأمراء إلى جيوش تيمور لنك.

لذلك قرر بـيكجيك أن لا يقـوم بأى حركة لأنه بذكـائه العسكرى عـرف الخطة العسكرية التى سيـوقعه بها تيمـور لنك وهى أنه إذا ما قرر أن يتحرك عـابرا الجسر

للوصول إلى الضفة الجنوبية للنهر بغرض الاشتباك مع القوات التى أمامه فإن القوات التابعة لتيمور والمتحصنة بالتلال ستقوم بمهاجمة مؤخرة جيشه، وفى نفس الوقت إذا ما حاول أن يهاجم تلك القوات فإنه سيتعرض لخطر الهجوم من قوات تيمور التى تتحكم فى رأس الجسر الموصل إلى الضفة الشمالية من النهر، وبالتالى فقد وجد أن أفضل الحلول له هو أن يبقى ساكنا فى مكانه حتى يبدأ تيمور فى الحركة ومن ثم معرفة مجهوده الرئيسى فى القتال.

والمقابل أثبت تيمور لنك حنكته كقائد عسكى، إذ أمر قواته بعدم الحركة والتزام السكون حتى يتبين رد الفعل الحقيقى من بيكجيك، وقد انقضى النهار على هذا الحال، وفى المساء قام تيمور بتوزيع قواته على جماعات صغيرة احتلت كل خطوط المواجهة الأمامية لتلك التلال التى تأخذ شكل نصف الدائرة، ثم أمر تلك المجموعات أن تشعل النيران فى فروع الأشجار، وأن يلوحوا بها لجهة اليمين واليسار.

عندما شاهد بيكجيك تلك النار المتوهجة خلفه وكذلك الجنود المرابطين على رأس الجسر أمامه قرر الانسحاب من أرض المعركة.

وأثناء انسحابه شن تيمور هجوما شرسا على مؤخرة جيش بيكجيك مما ألحق به خسائر فادحة، مما كان له أثر كبير فى أن تدب الفوضى بين جيوشه وأخذوا يهربون دون وجود تنظيم تكتيكى ينظم عملية الانسحاب .

وقد اتجهت قوات بيكجيك باتجاه مدينة كيش - حاليا شهرى سبز - واستمرت قوات تيمور فى مطاردتهم على الرغم من محاولات الأمير حسين وقف اندفاع قوات تيمور فى الاستمرار فى مطاردة قوات بيكجيك.

لكن تيمور لنك لم يستمع إلى نصيحة حليفه، حيث قرر أن يتجه إلى منطقة تدعى باب الحديد ليسد الطريق على قوات بيكجيك ويمنعها من الوصول إلى سمرقند، وقبل أن يصل إلى باب الحديد اختار ٦٠٠ من أفضل الفرسان وأمرهم

بالتقدم السريع نحو مدينة كيش، وأن يدوروا حولها وهم يجرون خلفهم أغصان الأشجار مما يثير الغبار الكثيف ويمنع الرؤية عن المدافعين - جيش بيكجيك.

وقد أثمرت تلك الخدعة التيمورية نتائج باهرة، إذ ظن الحاكم المغولى للمدينة أن جيشا جرارا يهاجمها، فما كان منه إلا أن انسحب منها هو وجيشه والتقت فى أثناء هروبها بجيش بيكجيك الذى كان معسكرا فى منطقة قبى متن .

قبل أن تغيب شمس هذا اليوم كان تيمور لنك قد وصل بجيشه إلى كيش، وهناك انضم له كثير من الأنصار .

وفى نفس هذا الوقت كان إلياس بن تيمور خان قد وصلته أخبار تفوق جيش تيمور لنك على بيكجيك، فقام بإرسال تعزيزات إضافية من القوات والسلاح والمؤن إلى بيكجيك، كما سار هو بنفسه على رأس جيش ليقهر بنفسه تيمور لنك.

انضمت قوات الدعم بقيادة إلياس نائب الخان فى بلاد ما وراء النهر مع قوات بيكجيك فى منطقة قبى متن على بعد ٢٤كم من كيش باتجاه سمرقند، حيث كانت جيوش تيمور لنك قد وصلت إليها وبدأت فى الاشتباك القوى مع بيكجيك وقواته، واستطاع أن تشتت شملها نظرا لإرهاق قوات بيكجيك مما حدث لها فى معركة الجسر، كما استطاعت بعض أجنحة جيشه فى مباغتة جيش الدعم الذى يقوده إلياس من المؤخرة والأجناب مما شتت شملها واستطاع سليمان البرلاسى وهو أحد أقارب تيمور لنك من أسر إلياس، كما تم أسر بيكجيك أيضا، وهكذا انتهت المعركة بهزيمة مروعة لإلياس وكان هذا معناه انتهاء احتلال الجغطائيين لبلاد ما وراء النهر .

ذكاء تيمور لنك

بعد أن هدأ غبار المعارك استدعى تيمور لنك أسراه إلى مقر إقامته حيث أكرم معاملة الأمير إلياس وبيكجيك وكبار القادة الجغطائيين ثم أمر بإطلاق سراح إلياس، وهناك قول آخر ذكره العديد من المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة أن إلياس هرب من السجن، وهناك رأى آخر يقول أن الذى ساعد إلياس على الهروب هو تيمور لنك شخصيا لكنى أميل إلى الرأى القائل بأن تيمور لنك قد أطلق سراح إلياس وبيكجيك وكبار القادة الذين تم أسرهم وذلك لعدة أسباب أهمها:

١ - عدم رغبة تيمور فى دخول مواجهة حاسمة مع تيمور خان الذى يمتلك جيشا أكثر عددا وأفضل تسليحا.

٢ - محاولته إغراء بعض هؤلاء القادة ومن ضمنهم بيكجيك على الخدمة فى جيشه .

٣ - عدم رغبته فى توسيع جبهات القتال قبل أن يحسم أمره مع حلفائه بشكل عام من زعماء قبائل بلاد ما وراء النهر والأمير حسين على وجه الخصوص.

٤ - علمه أن تيمور خان قد مات، وبذلك فإن مصلحته كانت فى اعتلاء إلياس كرسى العرش خلفا لوالده، وذلك لأن عدم جلوس إلياس على العرش معناه اعتلاء أحد الطامعين فيه عليه، وسيكون أول ما سيفعله هذا الطامع هو محاربة تيمور لنك ليضمن أن يلتف حوله كل أمراء وقادة بلاد الجغطائيين.

وكان تيمور لنك قد أصدر أمرا إلى نصف قواته بالزحف نحو سمرقند لدخولها، ومن ثم يكون هذا الدخول إليها بمثابة الإعلان الرسمى عن سقوط عرش الجغطائيين على بلاد ما وراء النهر، وفى نفس الوقت اتجه هو على رأس بقية الجيش

لنهر سيرداريا لمواجهة جيوش الجغطائيين التى كانت تريد الثأر لهزيمة قائدها لكنها عندما شاهدت تيمور على رأس قواته انسحبت من أمامه.

وهكذا عاد تيمور بقواته بعد أن ترك مفرزة عسكرية أمامية تابعة له على نهر سيرداريا حيث انضم لباقى قواته التى كانت على وشك الدخول إلى سمرقند.

وقد استقبل أهالى سمرقند تيمور لنك استقبال الفاتحين المنتصرين لقدرته على تخليصهم من حكم الجغطائيين الشرقيين، خاصة وأنه كان أملهم فى تحقيق هذا الحلم وها هو لم يخذلهم.

خلافات بين الحلفاء

لم يهنأ كثيرا تيمور لنك بانتصاره الكبير وتحريره سمرقند وبلاد ما وراء النهر من نير استعمار الجغطائيين حتى بدأ فى مواجهة الخلافات الكبيرة التى بدأ يقودها الكثير من الأمراء المحليين وقادة وزعماء القبائل، حيث كان يرغب الجميع فى أن يستقل بمدينته أو قريته بعيدا عن السلطة المركزية التى رأوا أن تيمور لنك يسعى لتكريسها من أجل توحيدهم .

ومن أجل منعه من حكم بلاد ما وراء النهر وسمرقند فإنهم قرروا أن يكون أحد أفراد أسرة جغطاى بن جنكيز خان هو حاكمهم، وكان اسمه كابل وقد عينوه خانا عليهم .

عارض تيمور هذه الفكرة، وقد نصحه بعض المقربين منه بأن يحسم الأمر بحد السيف، لكنه رفض تلك الفكرة، وأعلن للجميع رفضه لفكرة الخضوع لخان من الجغطائيين وغادر سمرقند بجيشه للإقامة فى مدينة كيش - شهرى سبز .

إلياس الخان

بعد أن استقرت أمور الحكم بين يدى إلياس بن تيمور كخان على الجغطائيين الشرقيين قرر أن يثأر من هزيمته أمام تيمور لنك، وأن يعاود احتلال بلاد ما وراء النهر مرة أخرى، ولم يهتم بأن خانها من أقاربه وهو الخان كابل.

خرج الخان إلياس على رأس جيشه القوى وكانت تتقدمه كتيبة من حملة الأعلام بشعارها المغولى المميز وهو القرون، وكان ذلك فى ربيع عام ١٣٦٥م.

ولما ترامت تلك الأخبار إلى أمراء وقادة بلاد ما وراء النهر عادوا إلى صوابهم واتحدوا حيث تكونت جيوش بلاد ما وراء النهر من كل قبائلها مثل البرلاس والجلائر وسلدوز إلخ، حتى أن بعض المتطوعين الأفغان دخلوا إلى هذه القوات.

وأمام هذا الموقف العصيب تحرك تيمور لنك بقواته التى تبلغ حوالى ستة آلاف رجل حيث عبر نهر سيرداريا واقترب من جيش الأمير حسين، وقد كان لتيمور خطة عسكرية تهدف إلى الإيقاع بقوات الخان إلياس قبل وصوله إلى سمرقند لكن الأمير حسين رفض خطة تيمور لنك.

ولتأكيد إعلان رفضه لخطته اتجه الأمير حسين بقواته نحو الشمال متقدما عدة كيلومترات عن مكان تمركز قوات تيمور لنك.

وفى هذه الأثناء وصلت مقدمات جيش الخان إلياس واشتبكت مع قوات الأمير حسين، ولم يستطع الأمير حسين أن يصمد أمام هجومها الجارف، فتشتت قواته واستمرت فى تقدمها حيث التقت بقوات تيمور لنك الذى استطاع أن يوقف زحف قوات الخان إلياس، لكنه لم يستطع أن يطور وضعه من الدفاع إلى الهجوم نظرا لقلة

عدد قواته مقارنة بجيوش الخان إلياس، كما أن الأمطار هطلت بشدة مما أفقد قوات الطرفين القدرة على القيام بمناورات تكتيكية سريعة، وكان هذا الوضع سيئا بالنسبة لتيمور لنك باعتبار أن قواته هى الأقل عددا، وبالتالى أصبح لزاما عليه أن يخوض معركته من خلال أوضاع تتسم بالثبات مما أفقده كثيرا من حيويته، وهو ما ظهر جليا على حجم الخسارة التى منى بها فى أفراده، حيث خسر حوالى ٤ آلاف مقاتل وأمام هذا الوضع قرر أن ينسحب من أرض المعركة محافظا على البقية الباقية من جيشه.

ونتيجة لتشتت جيوش الأمير حسين وبعد ذلك انسحاب تيمور لنك بجيشه من أرض المعركة أصبح الطريق ممهدا للخان إلياس وجنوده لدخول سمرقند، وعندما وصل إليها وجد أن قبائلها قد اتحدت لمواجهته كما سبق القول، مما أجبره أن يقوم بحصار المدينة على أمل استسلام المدافعين عنها.

لكن المدافعين عنها استمروا على يقظتهم واستطاعوا أن يبيدوا أى سرية من قوات الخان إلياس كانت تحاول الاقتراب من أبواب أو أسوار المدينة، مما دفع الخان إلياس إلى تشديد حصاره عليها مع عدم مهاجمتها.

وقد دخل الشتاء القارص على البلاد مما عرض جيوش الخان إلياس المعسكرة فى الخلاء حول المدينة للكثير من الأمراض، سواء بين الأفراد أو الخيول، حيث تفشى الطاعون بينهم مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف جيوش الخان إلياس .

وفى نفس الوقت كان أهالى سمرقند المحاصرون قد أرسلوا بالاستغاثات المتتالية إلى تيمور لنك ليساعدهم فى التخلص من الحصار وطرد جيوش الجغطائيين.

لبى تيمور لنك النداء وأتى بما بقى من قواته ومن انضم له من الأنصار وعندما رأى الخان إلياس جيوش تيمور لنك انسحب من أرض المعركة، وأخذ فى مطاردة جيوش إلياس ويقتل منهم ما استطاع إلى أن اطمأن على عودتهم إلى بلادهم،

كما أن الأمير حسين كان يـود كسر روابط المحبة التى تربط تيمور لنك بالناس، نظرا لارتباطه فى مخيلاتهم بأنه المنقذ، كـما كان هناك آخر على غاية الأهمية زاد من تأجيـج هذا الصراع بينهـما أو طفوه على السـطح بلا خجل فى العـلاقة التى تربطهما وهو مـرت أولجاى زوجة تيمور وشقيـقة حسين، حيث كانت أثنـاء حياتها قادرة على نزع فتيل الصراع حتى وإن لم يصل إلى مسامعها تفاصيل ما بينهما من خلافـات، وذلك لحب كل منهمـا لها، وفى سـبيل عـدم إغضابهـا كان كـلاهما يتغاضى للآخر.

وما ساعد أيضا على بدء هذا الصراع بينهمـا إحساس الأمير حسين أنه الأقوى باعتباره يـفرض نفوذه على مناطق واسعة ومهـمة فى نفس الوقت من بلاد ما وراء النهـر حيث كان يـفرض نفوذه عـلى بلخ وقندوز - قندهار -كابول وكـانت أغلب قبائل وعشائر تلك البلاد تعترف بنفوذه وسلطانه.

بينما كان تيمور لا يبسط نفوذه إلا على كيش، نظرا للظروف الكثيرة التى مر بها فى حياته، وكانت تدفعه دائما للهرب والاختبـاء فى الجبال خوفا من إلقاء الجفطائيين القـبض عليه، ورغم ذلك فـإنه كان يحظى بتـأييد كل علمـاء الدين وحب عـامة الشعب نـظرا لبطولته وشـجاعتـه التى أظهرها مـرارا، وكان الناس يتناقلونـها على ألسنتهم أثناء سهرات سمرهم.

لكن الذى أظهر الصراع بينهـما على السطح هو إسراع الأمير حـسين بالدخول إلى سمرقند كمـنتصر على الخان إلياس الذى فشل فى دخول المـدينة، وقد استغل حسين انشغال تيمور لنك بمطاردة المنسحبين ودخل إلى سمرقند.

وبمجرد أن دخلهـا عمد إلى فـرض سلطانه وسلطته عليـها، حيث أصـدر فور دخوله للمـدينة مجمـوعة من القرارات التى تنظم عـملية جمع الضـرائب وتحديد خطوط التجارة من وإلى المدينة، كما قـام بتوزيع الأراضى الزراعية فى المدينة على أقرب أتباعه.

ولما عاد تيمور من مطاردته لجيوش الخان إلياس وجد أن الأمور قد استقرت بهذا الشكل فى يد حسين رغم اقتناعه الداخلى بأنه السبب الحقيقى فى تحقيق كل تلك الانتصارات.

وكان أكثر ما فوجئ به تيمور لنك بعد عودته إلى سمرقند هو عدم قيام الأمير حسين بمنحه أية أموال أو غنائم من التى تم سلبها من الأعداء، بل فوجئ بما هو أكثر من ذلك حيث طلب منه حسين أن يدفع له بعض الأموال من ماله الخاص، واستمر فى الإلحاح مما دفع تيمور أن يدفع له مبلغ ثلاثة آلاف دينار، وبعد ذلك طلب منه حسين أموالاً أخرى ولم يكن مع تيمور أى أموال يمكن أن يعطيها لحسين، لذلك قام باعطائه مجوهرات زوجته التى هى أخت حسين وقد أخذ حسين تلك المجوهرات رغم علمه بأنها تخص شقيقته المتوفاة، وبعد ذلك طلب منه حسين أن يتنازل عن سيادة أراضيه الواقعة فى الوادى بالقرب من النهر، عندئذ فقط رفض تيمور الانصياع لرغبات حسين وأخذت العلاقة بينهما شكل الصراع .

الانسحاب إلى قارش

رغم كل التصرفات السيئة من الأمير حسين تجاه تيمور لنك فإنه - أى تيمور- ظل من ناحيته متمسكا بأواصر القرابة التى بينهما، وأنهما حلفاء، لكن زادت تصرفات حسين سوءا حين أصدر أمرا يقضى برفع قيمة الضرائب التى يجب على رجال قبيلة البيرلاس أن يدفعوها، وقد حاول تيمور إثناء حسين عن هذا القرار إلا أن حسين أصر على موقفه.

وكان هذا الموقف المتشدد منه هو القشة التى قصمت ظهر البعير، إذ لم يتحمل تيمور لنك معاناة أهله الذين فقدوا كل ما يملكون تقريبا فى المواجهات التى تمت

مع بيكيجيك ومن بعده من إلياس، سواء كان نائبا عن والده فى حكم بلاد ما وراء النهر أو عندما أصبح الخان بعد موت والده.

لذلك اتخذ تيمور قرارا فى منتهى الحكمة وينم فى نفس الوقت عن حنكة سياسية، إذ قرر أن يخرج بقواته من سمرقند واتجه إلى قارش، حيث اعتبر أن قرار تركه لسمرقند بمحض إرادته إن هو إلا إعلان قوى منه على رفض التصرفات التى يقوم بها حسين فى سمرقند، وفى نفس الوقت يكون قد تحاشى الدخول فى صدام عسكرى معه .

وبمجرد أن وصل هو ورجاله إلى قارش قرر أن يبنى فيها قلعة من الحجر، واعتبر الأمير حسين ما فعله تيمور فى قارش من الأعمال العدائية ضده على الرغم من أن قواته - قوات حسين - تسيطر على المدينة بكاملها بما تضمه من قلاع وحصون، حيث كان يقودهم القائد العسكرى البارع موسى الذى شارك تيمور لنك فى الانتصار على بيكيجيك وأيضا على الخان إلياس.

وقد أوعز حسين لقائده موسى بأن يقوم ببعض الأعمال التى من شأنها إثارة حنق وضيق تيمور لنك الذى كان قد أعطى أغلب جنوده وفرسانه أجازات طويلة يقضونها مع أهلهم، ولم يبق معه إلا ٢٤٠ جندى وفارس وثلاثة أمراء هم الأمير جاكو والأمير مؤاوى والأمير داود.

ولما زادت تحرشات موسى بتيمور لنك ورجاله قرر تيمور أن وقت المواجهة وتصفية الحسابات مع الأمير حسين قد حان، لذلك قرر أن يستولى على قارش، ولما كانت محصنة تحصينا جيدا وأيضا بها أعداد كبيرة من الجنود والفرسان المسلحين تحت قيادة موسى القائد المحنك فقد رأى تيمور أن المواجهة المباشرة فى هذا الوقت لن تفيده، خاصة فى ظل عدم وجود أغلب جنود جيشه معه بعد أن منحهم تلك الأجازة للراحة بعد كثرة المعارك التى خاضوها.

اقتحام القلعة

وبالتالى اتجه تفكيره إلى ضرورة دخولها بالحيلة والمكر، لذلك قرر أن يذهب إلى الأمير حسين آل هرات ملك هرات بمنطقة خراسان حتى يطلب منه العون، وأن يكون حليفه فيما هو فاعل، وقد ظهر التردد على ملك هرات وهو ما لاحظه تيمور من قسمات وجهه.

لذلك طلب منه أن يمده ببعض المال، فوافق ملك هرات على ذلك، فرجع على الفور تيمور لنك من هرات وبصحبته كل رجاله الـ ٢٤٠، وفى طريق عودتهم إلى قارش بلغتهم أخبار معرفة موسى بتحركهم إلى ملك هرات، وأنه لذلك تم تشديد الحراسة على المدينة.

استمر تيمور ورجاله فى السير نحو قارش إلى أن وصل لبئر مياه قريب منها موجود على ربوة عالية، ويستخدم هذا البئر الرجال المكلفون بحراسة قلعة وحصن المدينة، فتوقف هو ورجاله واختبئوا وسط الأشجار المحيطة بالبئر وأخذوا يصنعون السلالم من الحبال وأيضا الحبال.

وكان تيمور قد كلف بعضًا من رجاله بالمرابطة حول البئر، وأن يقوموا بأسر كل جندى من جنود موسى يأتى إلى الارتواء من مياه البئر.

نفذ الرجال ما أمرهم به قائدهم واستطاعوا أن يأسروا كل من أتى من جنود موسى، وعندما حل الظلام وكانت ليلة بلا قمر ترجل تيمور لنك ومعه اثنان من رجاله واتجها نحو القلعة الحصينة وعندما أصبحت على مرمى بصر منهم أبطأوا السير وأخذوا يرهفون السمع، ولما لم يسمعوا أى صوت تقدموا بحذر أكثر باتجاهها

إلى أن وصلوا إلى الخندق الذى يحيط بالقلعة، فتوقفوا عن المسير والحركة كالعادة وارهفوا أسماعهم فلم يسمعوا إلا صوت الصمت، فواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى القنطرة التى تصلهم بأسفل الحائط الرئيسى للقلعة، فمروا من فوقها، وأصبحوا بعد لحظات قصيرة يلمسون بأيديهم أسوار القلعة التى ينام بداخلها آلاف من أقوى الجنود التابعين لموسى الذى يأتمر بأوامر الأمير حسين حفيد قازغان.

ودار ولف تيمور حول السور إلى أن وجد جزءًا منه ضعيفًا فقام بهدوء بخلع الأحجار منه حتى أصبحت الفتحة التى فتحها فيه تكفى لمرور رجل، عندئذ أمر واحدا ممن معه أن يعود للرجال المختبئين ليأتوا بالسلالم والحبال التى صنعوها .

لم يمض وقت طويل حتى كان كل رجال تيمور الـ ٢٤٠ حوله، فأمر بعضهم بنصب السلالم وتسلق السور، وأمر البعض الآخر بالدخول من الفتحة التى شقها فى السور، وبعد أن اعتلى رجاله الأسوار قام بتوزيعهم على كل أنحاء السور .

وعند الشروق أمر تيمور بعضًت من رجاله بدق الطبول والنفخ فى الأبواق، فقام كل جنود وفرسان وقادة الحامية من نومهم، وكذلك السكان الذين يسكنون بالقرب من القلعة والكل مفزوع مما يسمع ويرى.

عندئذ أمر تيمور لنك قادة القلعة وفرسانها بإعلان استسلامهم وإلا سيتعرضون للقتل على أيدى رجاله، ولما كانت أسوار القلعة من كل الاتجاهات يقف عليها الـ ٢٠٠ رجل فقد تصور قادة القلعة أن جيوش تيمور تقف خلف الأسوار على أهبة الاستعداد للدخول فى القتال فأعلنوا استسلامهم، فخيرهم بين أن يوالو ويصبحوا من جنوده أو أن يتم حبسهم إلى أن ينظر فى أمرهم، فأقسموا جميعا له يمين الطاعة.

وهكذا استولى تيمور لنك بالحيلة على قارش، وكان ابن موسى هو قائدها فأبقاه تيمور بها ولم يرسله إلى أبيه فى المرج على ضفة النهر .

خيانة فى معسكر الأمير حسين

بمجرد أن وصلت أخبار استيلاء تيمور لنك على قلعة قارش وكذلك المدينة إلى الأمير حسين حتى استشاط غضبا وتحرك بجيش قوامه عشرة آلاف فارس ومعه الأمير موسى.

عندما وصلت تلك الأخبار إلى تيمور لنك قرر أن يلاقى حسين وموسى فى أسوأ وأصعب مكان ستمر منه قواتهما للوصول إليه، وكان هذا المكان عبارة عن ممر جبلى وعر وضيق، وكان اسم هذا الممر جكجك لذلك سارع بثلاثمائة فارس فقط واستطاع أن يفاجئ بهجومه حسين وموسى، واستطاع أن يقضى على الكثير من قواتهما، لكنه أدرك أنه لن يحقق النصر نظرا لكثرة أعداد جيش حسين وموسى، فقرر أن ينسحب إلى خراسان بعد أن ترك حوالى ٢٠٠ من رجاله للدفاع عن مدينة بخارى.

وبينما تيمور لنك يقترب بمن معه من جنود إلى نهر سيرداريا وصلته أخبار انسحاب اثنين من أهم أمراء الأمير حسين من الحلف الذى يضمهم معا وكان هذان الأميران هما الأمير خسرو حاكم مدينة ختلان والأمير بهرام أمير منطقة الجلائر، وكان إجمالى ما معهما من قوات يبلغ ٧٠٠٠ فارس، فقرر تيمور على الفور أن يعبر النهر ليقابلهما ويعرض عليهما الانضمام له، وفعلا حقق ما أراد منهما.

بقى تيمور وحليفاه فى طشقند للراحة، وفى نفس الوقت لتسقط أخبار الأمير حسين، فعلموا أنه أرسل بعض المفارز الأمامية من جنوده لتتبع تيمور لنك.

عندما وصلت تلك الأخبار لتيمور لنك خرج لملاقاة كل مفرزة على حدة واستطاع أن يهزمها، وعندما وصلت تلك الأخبار إلى الأمير حسين زاد جنونه، واندفع بجيش كبير نحو الشمال لمواجهة تيمور، فما كان من تيمور إلا أن عاد مسرعا إلى طشقند، لأن الشتاء كان يدق الأبواب، ولذلك لم يستطع الأمير حسين أن يستمر فى مسيره لمقابلة تيمور .

وكان تيمور عندما اختار الانسحاب إلى طشقند كان واعيا لمسألة دخول الشتاء وسقوط الثلوج، لذلك آثر أن يبعد بجيشه، وفى نفس الوقت كان يعرف مدى عناد وغباء حسين، لذلك توقع أن يستمر فى سيره وبذلك يقابله وهو فى قمة الإرهاق ...وفعلا كادت رؤية تيمور تتحقق لولا الخسائر الكثيرة التى لحقت بجيوش حسين من أثر البرد الذى لفحها والثلوج التى أمطرت عليه، وهذا كان ما دفعه للتوقف عن استكمال مسيرته إلى طشقند .

هجوم الجغطائيين

كان تيمور لنك يخشى خشية كبيرة من محاولة المغول الجغطائيين الشرقيين من مهاجمة بلاد ما وراء النهر، وفى نفس الوقت كان يخشى من تحالف حسين معهم لذلك قرر أن تكون مبادرة توجيه الأحداث بيده، وأرسل إلى الخان إلياس طالبا منه مساعدته فى الهجوم على قوات حسين فى سمرقند وبلاد ما وراء النهر، وقد وافق الخان على ذلك بسرعة نظرا لأطماعه فى أن يحكم قبضته على كل المغول سواء كانوا من الوثنيين أو المسلمين.

وقد وصلت تلك الأخبار إلى الأمير حسين، فخاف بشدة مما قد يحدث له من هجوم الجغطائيين، لذلك عقد اجتماعا مع علماء الدين الإسلامى ودفعهم دفعا للتوسط بينه وبين تيمور لنك وحلفائه من أجل الصلح، وفعلا تحققت رغبة الأمير

حسين وأجمعت جميع الأطراف على نسيان كل الأحداث السابقة مع ما صاحبها من ضغائن.

لم يمض وقت طويل على هذا الصلح بين الحلفاء حتى فوجئ الأمير حسين بقدوم جيش مغولى كبير يهدف إلى احتلال سمرقند، وكان أول ما فعله حسين هو أن أرسل جيشا قويا لمواجهة الهجوم المغولى بقيادة موسى، لكنه فشل فى صد الهجوم المغولى حيث هاجمته القوات المغولية بشراسة عند محاولته عبور نهر سيرداريا مما أجبره على الانسحاب من أرض المعركة .

فما كان من حسين إلا أن سافر بنفسه إلى تيمور فى كيش، وأخذ يحمسه للدفاع عن أراضى البلاد، فوافق تيمور على الخروج بجيشه حيث اتجه إلى أرض المعركة وقابل قادة الجيش المغولى، واستطاع بالحيلة أن يوقعهم فى الانقسام، حيث عرض على كل قائد على حدة أن ينضم إليه وينسحب من الجيش المغولى مقابل أن يعينه خانًا على بلاد ما وراء النهر بشرط أن يأتمر بأمره - أى بأمر تيمور - .

كان هذا العرض مغريا لبعض القادة ومرفوضا من آخرين، ومن ثم دب الخلاف فيما بينهم وتحولوا إلى قتال بعضهم البعض، ولما لم يستطع أى منهم حسم المعركة لصالحه اتفقوا على الانسحاب من بلاد ما وراء النهر عائدين إلى عاصمتهم ألماليك

وهكذا استطاع تيمور بذكائه ودهائه من إضعاف كل القوى التى كان يخشى منها على نفسه وعلى جيشه وأيضا على بلاده، إذ بالقتال الذى نشب بين المغول فإنهم خسروا الكثير من رجالهم وعتادهم، وبالنسبة لحسين خسر خيرة رجاله وفرسانه عندما حاول وقف زحف المغول.

ثورات ضد حسين وتيمور يربح

بعد رجوع جيش المغول الجفطائيين إلى بلادهم عاد أيضا تيمور لنك بقواته إلى كيش وعاد الأمير حسين إلى سمرقند، وهدأت الأحوال فى البلاد، فما كان من حسين إلا أن عاد إلى سياساته المتشددة تجاه أفراد الشعوب التابعة له من حيث زيادة قيمة الضرائب المفروضة عليهم، أو تحديد ما يجب عليهم أن يوردوه إليه من منتجاتهم الزراعية .

لذلك ثارت ضده ثورة عارمة من أهالى منطقة بدخشان التى تقع فى جبال هندوكوس، وقد حاول فى البداية الأمير حسين أن يقضى على تلك الثورة لكنه لم يستطع، بل زادت حدة الثورة ضده، وذلك ما دفعه إلى طلب النجدة من تيمور لنك ليتولى نيابة عنه وقف تلك الثورة، وقد لبى تيمور لنك دعوة حسين وانطلق إلى بدخشان حيث اجتمع بعلماء الدين وكبار رجال المنطقة، واستطاع أن يقنعهم بالانضواء مرة أخرى إلى سلطة الأمير حسين مع وعد منه بإلغاء الضرائب الجديدة التى فرضها عليهم، وكذلك ضمانه لإلغاء كل القرارت التعسفية التى أصدرها حسين بشأنهم.

وهكذا استطاع تيمور أن يجمع من حوله الأمراء وكبار رجال القوم وعلماء الدين، لذلك قرروا استضافة تيمور لنك عندهم وعاملوه معاملة الملوك، وقد أعجبت تيمور حالة الود والحب المتبادل بينه وبين أفراد الشعب فى بدخشان فطالت إقامته بها.

وكانت هذه الإقامة الطويلة مدعاة لقلق حسين، حيث خاف أن يعلن تيمور

العصيان ضده من هناك، لذلك أخذ يرسل له الخطابات التى تطالبه بسرعة العودة إلى سمرقند لمقابلته ولما لم يجد استجابة من تلك الخطابات أرسل له خطابا يخبره فيها بقيام ثورة أخرى جديدة ضده فى جنوب نهر أمادوريا، فتحرك تيمور إلى سمرقند خاصة وأنه قد وصله خطاب فى نفس الوقت تقريبا من الأمير خسرو الذى تربطه بتيمور علاقة عائلية حيث إن جهانكير بن تيمور كان متزوجا من بنت خسرو.

وفى هذا الخطاب وضح خسرو لتيمور أنه والأمير محمد سلدوز قررا الثورة على ظلم حسين، ولذلك يطلبان منه أن ينضم إليهما.

أرسل تيمور لنك ردا إلى الأمير خسرو أخبره فيه أنه لن يستطيع الانضمام إليهما فى ثورتهما ضد حسين، نظرا للقسم الذى منحه للأمير حسين بأن لا يخرج عن طاعته ما بقى حيا.

وبمجرد أن وصل تيمور لنك إلى سمرقند قابل حسين الذى طلب منه أن يخرج على رأس جيشه وعبور النهر لإخماد الثورة وأن يصحب معه القائد موسى.

رفض موسى تنفيذ أمر الأمير حسين بحجة إرهاق جيشه .بينما نفذ تيمور لنك أمر الأمير حسين وعبر بقواته النهر، وبمجرد أن رأت جيوش الثوار جيش تيمور لنك انسحبت من أرض المعركة وفر الأمير خسرو إلى الجبال، وبعد أن أنهى تيمور لنك مهمته بنجاح لم يعد إلى سمرقند حيث ذهب إلى كيش مكانه المفضل الجميل.

طموح السلطنة

ها هو تيمور لنك أعاد بحكمته ودهائه وقوته الهدوء إلى كل ربوع بلاد ما وراء النهر، وأصبحت الحياة هادئة فى البلاد بعد أن ابتعد عنها خطر الجغطائيين بعد حيلة تيمور لنك والتى بسببها تقاتل جيشها مع بعضه.

لكن كالعادة قـرر الأمير حسين أن يعلن نفسـه سلطانا على بلاد ما وراء النهر، وأرسل برسـالة إلى تيمـور يخبـره فيـها بما عـزم عليه، وأنـه ينتظر منه الكثيـر من المساعدة، ثم أتبع تلك الرسالة برسالة أخرى يطلب فيها من تيمور لنك أن يقابله فى مدينة بلخ، لأنه قرر أن تكـون هى عاصمة السلطنة الجديدة وكـاد تيمور أن يذهب إليهـا ليقابل الأمـير حسـين لولا أن وصل إليه أحد أصـدقائه الخلصاء من أعـضاء مجلس حكم الأميـر حسين حيث أبلغه أن حسـين ينوى به السوء فى بلخ، ولذلك من الأفضل أن لا يسافر إليها ويرسل له خطاباً يخبره فيه بمرضه.

أعلن تيمـور لنك رفضه السفر إلى بـلخ فجن جنون الأمير حـسين الذى سارع بإرسال جـيوشه إلى كيش، والهـدف الرئيسى لعمل هذه الـقوات هو إجبار قـبيلة البرلاس وهى قبيلة تيمور لنك على الهجرة إلى بلخ .

رفض كبار رجال القبيلة الانصياع لرغبات حسين، واتجهوا إلى تيمور يطلبون منه الوقوف فى وجه حسين، وقـد نظر تيمور لنك لرغبة حسين بتهجـير قبيلة البرلاس بالقوة إلى بلخ إلى أنه تجاوز شديد وخطير من حسين فى حقه، إذ إنه بإقدامه على هذه الخطوة يكون قد حول الصراع بينهما من صراع سياسى إلى صراع شخصى.

لذلك هب تيمور لنك للدفاع عن حقوق قبيلته وأيضا كرامته التى أراد حسين أن يعثـرها، وقاد جيشه واستـطاع أن يلحق الهزيمة بجيوش حـسين الذى انضم جزء منها إلى جيوش تيمور لنك، ولما رأى تيمور لنك ذلك قرر أن يغير على البلخ نفسها حيث يقيم بها حسين مع القسم الأعظم من جيشه.

وبمجرد أن علـم العامة بما قـرر تيمـور حتى أخـذوا فى الدعاء له بالنصـر، أما الأمراء فقد تحالف منهـم الكثير معه، وكان أبرز المنضمين إلى قـوات تيمور الأمير خسرو والأمير محمد بايان سلدوز.

مقتل الأمير حسين

سار تيمور لنك بجيوشه باتجاه بلخ، وكان ذلك عام١٣٧٠م وأثناء توقفه فى مدينة ترمذ قابل هناك القائد العسكرى الشهير موسى الذى أعلن تخليه عن الأمير حسين وانضمامه للعمل تحت راية تيمور لنك، وتحرك بجيوشه عائدا إلى سمرقند لتأمينها من أى هجوم، بينما استمر تيمور لنك فى السير إلى بلخ، وأثناء عبوره وقواته نهر أموداريا انضمت له بعض قبائل الجغطائيين الوثنيين، وكان من أبرز تلك القبائل قبيلة أبيورد .

وما أن وصل تيمور لنك وقواته إلى السهل المحيط ببلخ حتى وجد حسين وجيشه فى انتظاره، ودارت المعركة المرتقبة بين الحليفين السابقين، وقد نجح فى البداية الأمير حسين فى الصمود أمام الضربات الموجعة التى كالها له تيمور لنك وقواته، إلا أن الحال لم يستمر طويلا، إذ إنه مع بزوغ فجر اليوم التالى للمعارك بدأت قوات الأمير حسين فى الانسحاب من أرض المعركة، حيث دخلت إلى المدينة فحاصرها تيمور لنك واقتحم أسوارها ودخلها.

لما رأى الأمير حسين ذلك هرب من على رأس الجيش وذهب إلى أحد المساجد، حيث خلع ملابس الإمارة وتنكر فى ملابس العامة، وعندما حل المساء حاول أن يخرج من المدينة لكن بعضًا من سكانها رأوه وتعرفوا عليه واقتادوه إلى الأمير خسرو الذى قتله.

ونتيجة لذلك أصدر تيمور لنك الذى أصبح الرجل القوى والوحيد فى كل بلاد ما وراء النهر أمرا بمصادرة كل أملاك وأموال الأمير حسين، حيث قام بتوزيعها

على أنصاره، وكان الشيء الوحيد الذى اختص تيمور لنك نفسه به هو مجوهرات زوجته أولجاى والتى كان قد أخذها منه الأمير حسين رغم علمه أن تلك المجوهرات هى مصاغ شقيقته أولجاى.

السلطان تيمور لنك

بعد أن دخل تيمور لنك مدينة بلخ وجد حوله قلوب أفراد عامة الشعب وكذلك كل الأمراء والقادة يقبلون بسلطته ويرتضون نفوذه، شعر تيمور لنك أن الأمور قد بدأت تستقيم له وخاصة بعد أن تخلص من الأمير حسين.

لم يغادر تيمور لنك بلخ، بل أقام فيها مدة ليست بالقصيرة انقضت الفترة الأولى منها فى تلقى التهانى سواء من عامة الشعب أو من الأمراء، وفى هذه الأثناء واتته فكرة أن يعلن نفسه سلطانا على كل بلاد ما وراء النهر، وكانت له أسبابه التى تدعوه إلى ذلك، وأهمها :

١ - رغبته فى أن يكون لبلاد ما وراء النهر نظام حكم مستقر.

٢ - رغبته فى اتحاد كل الممالك والمدن فى بلاد ما وراء النهر تحت قيادة واحدة.

٣ - شعوره بطمع المغول الجفطائيين فى بلاد ما وراء النهر.

٤ - رغبته فى استثمار الدفعة المعنوية التى يحيطه بها كل أفراد شعب وأمراء بلاد ما وراء النهر .

وكانت هناك مشكلة تواجهه وهى أنه ليس تورا، أى أنه لا ينحدر من النسل المباشر لجنكيز خان من زوجته الأولى، وفى محاولة منه لحسم تلك المشكلة قرر عقد كوريلتاى وهو عبارة عن مجلس يضم كل رؤساء القبائل وأمراء المناطق من

ذوى الأصول المغـولية، وقد كـانت معظم قبـائل وشعوب بلاد مـا وراء النهر من المغول.

لم يمض وقت طويل حـتى كان أعضـاء الكوريلتاى قـد بدأوا فى الوصول إلى بلخ، وبعد أن وصل كل قـادة وزعماء وأمـراء الشعب المغـولى افتتح تيـمور لنك اجتماعات الكوريلتاى حيث عرض عليهم السبب الرئيسى لدعوتهم للاجتماع.

كانت آراء بعض الأمراء وزعـماء القبائل أنهم يرفضون قـيام سلطنة فى البلاد، حيث رأوا أنه من الأفـضل لها أن يحكم كل أمير أو زعـيم قبيلة منطقتـه وبالشكل الذى يتراءى له، وعند تعرض البلاد لخطر فإن على الجميع أن يتحدوا من أجل رد المعتدى، وقد كانوا يقصدون تحديدا فى كلامهم المغول الجغطائيين.

وقام فريق آخر كـان يعارض الفكرة التى تم طرحها، وكان مبـرر المعترضين أن الرأى الذى طرح معناه التكريس لبقـاء البلاد مفتتة مقـسمة، وأنه من الممكن بمضى الوقت أن تتعارض مصالح تلك الممالك الصغـيرة مع بعضها البعض ومن ثم تنشب بينها الحروب مما قد يعمل على تدخل المغول الجغطائيين.

وكان هناك رأى أخير تبناه زعماء أكبـر القبائل فى بلاد ما وراء النهر حيث طالبوا الجميـع بضرورة الالتزام بالقواعـد العامة للحكم التى وضعـها الخان الأكبـر جنكيز خان، وطالبـوا المجلس بالبحث فـيما بينهم عن شـخص تنطبق عليه القـواعد التى وضعها جنكيز خان ويكون تيمور نائبا له بكل سلطات وصلاحيات الخان.

وأخيـرا جاء دور المسلمين من غـير ذوى الأصول المغوليـة وقد فوضـوا بالنيابة عنهم أحد علماء الدين، فوقف وطالب أن يكون تيمور هو السلطان على كل بلاد ما وراء النهر باعتـباره الوحيد القادر على وحدة البلاد، وأنه لا مـشكلة من مخالفة القواعد التى وضعها جنكيز خان لمن يحكم المغول حيث نبه كل الجالسين أنهم على

الرغم من أصولهم المغولية إلا أنه قد أصبحوا مسلمين، وأوضح لهم أن الشريعة الإسلامية منعت احتكار جنس معين أو بيت معين لأمور السلطة فى أى مجتمع من المجتمعات الإسلامية.

وبعد ذلك وجه حديثه للقادة العسكريين والأمراء، ووضح لهم أنهم قبلوا بحكم المغول الجغطائيين ولم يحاولوا أن يثوروا عليهم إلى أن أشعل تيمور لنك شرارة المقاومة، ثم ذكرهم بأنهم كانوا يكرهون الأمير حسين، ورغم ذلك ظلوا على طاعتهم له وعندما اندلعت الثورات ضده خافوا من مواجهته ولم يتحركوا إلا بعد تأكدهم من تحرك تيمور ضده، رغم أن تيمور أثناء حركته ومواجهته لحسين لم يطلب المعونة من أحد.

ولذلك فإن تيمور غير مطالب بتنفيذ طلباتكم باعتباركم تورانيين ثم ختم حديثه موضحا لهم أن المصلحة العامة لبلاد ما وراء النهر تحتم اتحادها ووحدتها خلف سلطان قوى يستطيع أن يحميها من أطماع المغول الجغطائيين.

وقد قال عالم الدين هذا الكلام وهو يعلم أن تيمور لنك ليس هو الحاكم المسلم التقى الورع، بل قاله لأنه كان مدركا أن تيمور لنك بفطنته وذكائه ودهائه وحكمته وحنكته وقوته هو الوحيد القادر على فرض النظام فى كل أرجاء بلاد ما وراء النهر، ومن ثم فإنه الوحيد القادر على كبح جماح رغبات وأطماع المغول فى بلاد المسلمين.

وكان الذى دعم رأى عالم الدين الإسلامى هو إعلان جمهور الجنود والفرسان والضباط رغبتهم فى أن يعتلى تيمور لنك عرش البلاد، وأعلنوا أنهم لن يرضوا بأى شخص آخر بديلا له فى حكم البلاد .

وهكذا انتهى الاجتماع وكل من فيه قد اقتنع بوجهة نظر عالم الدين ورجال الجيش، وبالتالى لم يعد أمامهم إلا تنصيب تيمور سلطانا عليهم، وهو ما حدث فى

اليوم التالى حيث اجتمع كل زعماء القبائل والأمراء وقادة الجيش وعلماء الدين، واتجهوا إلى تيمور فى مقر إقامته ودخل كل واحد منهم إليه حيث أمسكه بيده، وبعد ذلك حملوه جميعا وأجلسوه على كرسى العرش، ومن ثم أصبح تيمور لنك سلطانا عليهم منذ تلك اللحظة، وبعد ذلك وقف الجميع أمامه وأقسموا له ولاء الطاعة .

ووقف واحد منهم وقال: منذ الآن فإن تيمور المحارب هو تيمور الأمير، وإن كل الحاضرين فى الكوريلتاى سيكون الإخلاص لتيمور هو شرفهم وستجلب الخيانة له العار لأسمائهم واللعنة على أبنائهم، ومنذ الآن فصاعدا سيكون تيمور حكما فى الخصومات، وعليه أن يعمل جاهدا لحماية أملاكهم.

وختم حديثه لتيمور قائلا. . .إذا هو خيب آمالنا وتخلى عنا فإن من حقنا أن نعقد كوريلتاى آخر لنختار أميرا جديدا.

بعد ذلك وقف تيمور لنك وهو ممسك بالمصحف حيث أقسم لهم أنه لن يتركهم أو يخونهم أو يقوم بأى عمل لا يرتضونه.

وكان أول عمل قام به تيمور بعد تنصيبه سلطانا هو قيامه بتوزيع الهدايا على جميع من حضروا حفل تنصيبه، وتراوحت هذه الهدايا ما بين الأحصنة الأصيلة والملابس المرصعة بالأحجار الكريمة والأسلحة.

وفى اليوم التالى لتنصيبه سلطانا على بلاد ما وراء النهر قام تيمور لنك بتعيين الوزراء الذين سيحملون معه مسئولية الحكم، وعين قائد عام الجيش وقادة الجيوش المختلفة، وقام بتعيين حكام المدن والبلاد الرئيسية فى البلاد، وقد راعى فى اختياراته أن يكون المعين على أعلى درجة من الكفاءة والحنكة والخبرة للمنصب الذى تم اختياره له، وفى نفس الوقت راعى أهمية القبائل المختلفة أثناء التعيينات فى المناصب الكبرى فى الدولة، وقد نالت اختياراته استحسان كل قادة القبائل والأمراء مما عمل على رفع الروح المعنوية له ولهم على حد سواء، وقد حدث ذلك فى أواخر عام ١٣٧١م .

نهج جديد للحكم

كعـادة الأفراد الزعماء فـإن تيمور أحكم كل خيـوط السلطة بين يديه على كل بلاد ما وراء النهر والهند، لكنه كان يسـمح للخاصة من حوله أن يدلوا بدلوهم فى الأمور التى تهم الدولة، وكـان يصغى إليهم باهـتمام ويدخل فى نقـاشات عميـقة معهم لمعـرفة أسباب رأيهم، لكن فى كـل الأحوال لم يسمح لأحد إطلاقا بـالتأثير على قراراته، أما لو كانت المناقشات التى تدور معه غرضها المعارضة للمعارضة فإنه كان سريع الحسم عن طريق إسكات محدثه.

وكان أول شىء فـعله هو قراره التخلص من خـاصة الأميـر المقتول حـسين لما رفضـوا الانضواء تحت رايته، وأخـذ يشدد على حكام المدن والبـلاد الذين عينهم بضرورة مراقبة تحركات المغول الجغطائيين.

كما كـان بين الحين والحين يرسل أفضـل فرقه العسكرية لاخـتراق حدود بلاد الجغطائيـين والتوغل بهـا والعمل على قـتل أى جيوش مـغولية تقـابلها، وغـرضه الأساسى من ذلك إثبات قوته وقدرته للمغول، بحيث تكون تلك الهجمات البسيطة التى يأمر بشنها ما هى إلا أحد وسائل ردع للمغول حتى لا يهاجمونه.

واتخذ أسلـوب القسوة والعنف مـع أى محاولة كـان أى من الأمراء أو زعـماء القبائل يحـاولون القيام بها ضده بغرض الانفـصال عن سلطانه، إذ كان يرسل على الفور العديد من ألوية الجيش تدك حصونهم وتقوم بتكبيلهم بالحديد ليقفوا بين يديه، حيث كـان يعقـد لهم المحاكمـات العسكرية التى كـانت تدين أفعـالهم ويتم الحكم عليهم بالإعدام، ويتم الإعلان عن تلك الأحكام فى كل أرجاء البلاد.

وبنفس قدر قسـوته على معارضيه ممن يريدون الانفـصال عن الدولة كان حنونا

رفيقا بأفراد شعب كل بلاد ما وراء النهر، حيث عمد إلى توفير فرص العمل لهم وحماية مزارعهم وتأمين خطوط المواصلات التجارية سواءً التى تربط بين المدن المختلفة فى البلاد أو التى تربط بلاد ما وراء النهر بالممالك الأخرى مثل الصين ومغول الجات وروسيا.

وأخذ رويدا رويدا فى عزل غير المسلمين عن وظائف الدولة الكبرى والحساسة، وقد اتخذ من مدينة سمرقند عاصمة له، وحتى تكون له الشرعية الكاملة فإنه عين محمود بن سيور غتميش وهو من نسل أوغوداى بن جنكيز خان على البلاد وإن كان لا يمتلك أية صلاحية لممارسة فعل السلطة فى البلاد.

واتبع سياسة العفو عن كل من حاربوه وقت الخلافات والصراعات أيام أن كانت بلاد ما وراء النهر ممزقة بين الممالك الصغيرة وزعماء القبائل، وذلك قبل أن يوحدها هو بعد مقتل الأمير حسين، ونتيجة لتلك السياسة تفرغ للعمل على إعمار مدينة سمرقند ومعظم المدن الكبرى فى سلطنته، وكان كل مجهوده موجهًا لإزالة آثار الاحتلال المغولى - الجغطائيين - وأيضا آثار الحروب التى دارت فيها لذلك أخذ فى بناء المساجد والحدائق والمدارس وبيوت الضيافة، كما أنه قام بإلقاء القبض على عصابات قطاع الطرق والتى كانت تتخذ من سمرقند مأوى لها تمارس من خلالها بطشها وقسوتها على الناس.

رفض الاحتلال

كانت مدينتى كات وخيوه - وهما من بلاد ما وراء النهر - واقعتين تحت سيطرة الاحتلال لحكام مدينة خوارزم التى كانت تحكمها أسرة آل صوفى.

لذلك كان تحرير تلك البلاد من السيطرة الخوارزمية أمراً هام وضرورياً من وجهة نظر تيمور لنك، ليطمئن على تمام إحكام سيطرته على كل بلاد ما وراء النهر خاصة وأن حسين صوفى حاكم خوارزم كان ينظر إلى تيمور لنك نظرة دونية، لذلك عمد بعد اعتلاء تيمور لنك حكم بلاد ما وراء النهر على زيادة إحكام سيطرته على كات وخيوه، وفى نفس الوقت حافظ على أن تكون علاقته بتيمور لنك علاقة تتسم بالود لذا نجده قد أرسل الهدايا مع رسله لتهنئة تيمور لنك باعتلائه عرش بلاد ما وراء النهر.

وبالنسبة لتيمور كان يشعر أن بسط آل صوفى لسلطتهم على كات وخيوة شوكة فى ظهره تمنعه من الحركة بحرية فى مواجهة أية أخطار محتملة قد يتعرض لها، وذلك لأن آل صوفى لهم أطماع فى توسعة ملكهم، إذ كانوا يعتقدون أنهم الأكثر حضارة من كل البلدان الواقعة فى وسط آسيا نتيجة انغماسهم فى الثقافة الإيرانية ذات الجذور الفارسية .

لذلك استغل زيارة رسول حسين صوفى له ليقدم له التهنئة وأرسل معه خطاباً إلى حسين صوفى يطلب فيه منه أن يقبل بزواج ابنته - ابنة حسين - من ابنه جهانكير .

وقد جاءه الرد على ما طلب كالآتى: لقد افتتحت بالسيف خوارزم وبالسيف فقط يمكن أخذها منى ومن رد حسين صوفى نعرف أنه فهم مغزى طلب تيمور منه، إذ إن طلب تيمور كان يعنى :

١ - أن تيمور ينظر إلى حسين صوفى ومملكته كتابعين له .

٢ - أنه يطالب باسترداد المدينتين التى يحتلهما حسين صوفى.

٣ - أنه يطالب بتطبيق قوانين جنكيز خان فى حكم البلاد التى فتحها فى عنفوان قوته .

٤ - أنه يطالب بكل الحدود القديمة لخانيه المغول الجفطائيين .

وأمام هذا الرد الشرس من حسين صوفى قرر تيمور لنك أن يخرج على رأس جيشه لتأديب حسين لكن أحد مستشاريه أقنعه بأن يرسل أولا رسولا نيابة عنه إلى حسين صوفى فى محاولة لحل كل نقط الخلاف بينهما وذلك حفاظا على دماء المسلمين فوافق تيمور على هذا الاقتراح وأرسل رسوله إلى حسين والذى ما أن وصل إلى أوركنج حتى اعتقله حسين وأودعه السجن وأرسل خطابا إلى تيمور يخبره فيه بما فعله .

مبارزة لم تتم

ثار تيمور أمام هذا التبجح الكبير من الأمير حسين وخرج على رأس جيش كبير يتكون من خمس فرق من الفرسان، غير المشاة ورماة الأسهم والرماح، وتقدم نحو كات وخيوة حيث استطاع دخولهما دون أية مقاومة تذكر، ولم يحاول أن يأخذ قسطا من الراحة، بل استمر فى تقدمه حتى أصبح على مشارف عاصمة خوارزم أوركنج.

وكان حسين عندما وصلته أخبار ما قام به تيمور قد خرج بجيشه من مدينة أوركنج، لكن بمجرد أن رأى حجم جيوش تيمور انسحب عائدا إلى عاصمته وأحكم غلق أبوابها، وقام بتشديد الحراسة على أسوارها، فلما وصل تيمور ووجد الأمر هكذا قرر أن يحاصرها، ولما لم يكن يمتلك أدوات الحصار ومعداته من قاذفات حجارة والأبراج المتحركة والسلالم المتحركة والمجانق قرر أن يطلبها من عاصمته بعد أن التف بجيشه حول أسوار المدينة.

إلى خوارزم مرة أخرى

عاد تيمور إلى سمرقند بعد أن عين يوسف صوفى نائبا عنه فى حكم بلاد خوارزم وقد شعر تيمور بالراحة إذ إنه أخيرا قد استطاع أن يبسط نفوذه على كل أراضى بلاد ما وراء النهر، واستمر بعد عودته فى مراقبة الأحوال فى البلاد شرق النهر - المغول الجغطائيين.

لكن ما عكر الأحوال وصفو الحال فى بلاد ما وراء النهر اكتشاف تيمور لنك لحركة تمرد يقودها الأمير خسرو حليفه السابق فى مواجهة الأمير حسين شقيق زوجته، عندئذ أمر تيمور لنك رجاله بإلقاء القبض على الأمير خسرو، فأتوا به مكبلا فى السلاسل، وعند قيام تيمور لنك بتفتيشه وجد رسالة فى جيبه تثبت اشتراك الأمير يوسف صوفى معه فى هذه المحاولة الانقلابية .. فقام تيمور لنك باستجواب خسرو كثيرا فى أمر يوسف صوفى، ولما تأكد من ضلوعه فى المؤامرة خرج فورا على رأس جيش كبير واتجه إلى أوركنج، ولما رأى يوسف صوفى تيمور بجيوشه أمامه أعلن أسفه عما فعل، وطلب من تيمور العفو والأمان فرفض تيمور، وبينما كان يعد العدة لمحاكمته وصلت خان زادة زوجة ابنه جهانكير إلى أوركنج وتوسطت لعمها يوسف، فرضخ تيمور لوساطتها وعفا عنه، بل وأبقاه فى منصبه حاكما على خوارزم كنائب له، وكان ذلك فى عام ١٣٧٣م.

استمر الهدوء فى العلاقة بين تيمور خان ويوسف صوفى مدة ست سنوات تقريبا، إذ إنه فى عام ١٣٧٨م استغل انشغال تيمور لنك بالدفاع عن أراضيه أمام هجمات مغول الجماعة الذهبية وأعلن استقلال خوارزم عن سلطة بلاد ما وراء النهر، وقام بشن حملة عسكرية على مدينة، بجارى وألقى القبض على أحد رسل تيمور له.

لذلك اتجه تيمور بجيوشه فور انتهائه من هزيمة مغول الجماعة الذهبية إلى خوارزم، وعند وصوله إلى العاصمة أوركنج وجد يوسف قد حصن المدينة تحصينا جيدا، فما كان من تيمور إلا أن أحكم حصاره على العاصمة، ذلك الحصار الذى استمر حوالى ثلاثة عشر شهرا إلى أن استطاع دخولها، وقد عامل تيمور لنك أهلها بقسوة وأحلها للسلب والنهب من قبل جنوده، وقام بهدم أسوار مدينتها وحرق قلاعها وأعدم يوسف صوفى.

وفى طريق عودته إلى سمرقند وجد أن قبيلة جلائر قد أعلنت العصيان عليه مستغلة انشغاله فى الحرب ضد مغول الجماعة الذهبية وأيضا ضد خوارزم، حيث تحالف زعماء القبيلة مع قادة المغول حيث حاولوا دخول سمرقند لكنهم فشلوا فى دخولها نظرا لوجود جهانكير بن تيمور بها مع بعض القوات.

لذلك قام تيمور بتدمير مدينة جلائر تدميرا كاملا حيث لم يترك بها مبنى واحداً يرتفع عن سطح الأرض، وبعد أن عاد إلى سمرقند قام بتوزيع أراضى جلائر على العديد من القبائل الأخرى، وذلك حتى يضمن عدم رجوعهم إلى العصيان ضده مرة أخرى.

احتلال خراسان

بعد أن استطاع تيمور لنك إحكام قبضته بالكامل على خوارزم بكل ما تملكه من مراعى خضراء وأراضى زراعية زادت موارد بلاد ما بين النهرين، وفى نفس الوقت اطمأن تماما على الأحوال الداخلية للبلاد بعد أن استطاع أن يقضى على كل رؤوس الفساد والفتنة فى البلاد .

لذلك بدأ يتجه بأنظاره إلى خراسان ليضمها إلى سلطانه ويستفيد من خيراتها، وكان مبرره لذلك الآتى:

١ - أنه شعر أنه قد أصبح قوة كبرى فى المنطقة.

٢ - ضعف المغول الجغطائيين.

٣ - أن خراسان كانت أحد فروع أو مناطق دولة الأليخانيين التى كان جده هولاكو قد أسسها وتعاقب على حكمها أبناؤه وأحفاده، وبعد سقوطها أصبحت تسبح فى بحر من الفراغ السياسى والعسكرى.

٤ - ورثت دولة الأليخانيين العديد من الممالك الصغيرة غير المتحدة، وفى نفس الوقت تتمتع بغنى اقتصادى، ومن ثم فإنها سهلة الوقوع بين قبضته.

٥ - عدم رغبته فى المواجهة المبكرة مع المغول الجغطائيين نظرا لارتباطهم برباط وثيق بمغول الجماعة الذهبية الذين يسيطرون على جورجيا وكييف وموسكو.

٦ - رغبته فى الوصول إلى الشام المعروف بغناه الاقتصادى، ومن بعده إلى مصر والتى كان يعتبرها الكعكة الشهية الكبرى فى العالم والتى حاول جنكيز خان وهولاكو الحصول عليها ولكنهما منيا بالفشل.

٧ - مدينة ومنطقة خراسان هى المعبر الأساسى له للوصول للعراق والشام.

ونتيجة كل هذه الأسباب السابقة نجد أن تيمور خان استثمر نجاحه فى بسط سيطرته على خوارزم فى بداية عام ١٣٧٩م، فعاد بجيشه إلى عاصمته سمرقند حيث أعطى جنوده وفرسانه فترة راحة بسيطة استرجعوا بها حيويتهم وقوتهم، وقام بتجميعهم للتحرك نحو خراسان .

وقد اتبع استراتيجية عسكرية مبتكرة فى هذا الوقت وهى أنه هاجم خراسان بجيشين، حيث نجد أن الجيش الأول منح قيادته لابنه ميران شاه، ولم يمض أكثر من أسبوعين حتى خرج تيمور بنفسه على رأس القوة الضاربة لجيوشه، حيث عبر نهر أموداريا وفجأة اتجه ناحية مدينة سرخس فسارع حاكمها الملك محمد إلى

إعلان خضوعه لتيمور، فطلب منه تيمور أن يمده بالمؤن اللازمة للجيش نظرا لتوجهه إلى خراسان لإسقاط آل كرت من على كرسى عرشها.

ثم تحرك من سرخس على طريق مدينة هرات حيث خلها وكان حاكمها الأمير غيات الدين قد أعلن استسلامها، فعفا تيمور لنك عن سكان المدينة وأبقى غياث الدين أميرا على المدينة كنائبا عنه فى حكمها، ولضمان استمرار غياث الدين على كامل ولائه له قبض على بعض أقاربه ومنهم بعض أبنائه وأشقائه وأرسلهم إلى سمرقند كرهائن.

وقبل أن يغادر هرات استولى على كل الأموال الموجودة بخزينة الإمارة وكل الذهب والفضة كذلك، كما أخذ كل الأموال الشخصية لأميرها ولم يترك له إلا ما يحافظ على مظهره كأمير للمدينة.

وفى الطريق إلى خراسان قرر أن تكون بغيته منطقة خراسان الغربية التى أعلنت استسلامها، وكانت مدينة كيلات - اسمها الآن نادیری - وقد عين تيمور حاكمها الأمير على بك نائبا له عليها ولم يحاول أن يسترح بجيوشه بها، بل استمر فى التحرك حيث اتجه إلى مدينة طوس فأعلن أميرها على المؤيد خضوعه له، فاستمر تيمور فى توغله داخل منطقة خراسان الغربية، فاحتل مدينة أسفرائين والتى كان يحكمها الأمير شاه ولى الذى كان قد علم بمقدم جيوش تيمور فأرسل رسالة استغاثة إلى حكام العراق وأذربيجان لنجدته، وأيضا لحكام فارس من المظفرين، ولسوء حظه فإن تيمور وصل إلى بلاده قبل أن يصله أى رد ممن استنجد بهم، لذلك أعلن دخوله فى طاعة تيمور بمجرد أن وصل على رأس جيوشه أمام أسوار المدينة.

استراح تيمور لنك وجيوشه فى أسفرائين واكتفى بما حققه من إنجازات كبيرة فى وقت قصير وقرر أن يعود إلى سمرقند، وكان ذلك فى منتصف عام ١٣٨١م.

بعد عودة تيمور إلى سمرقند اجتمع على بك وشاه ولى وقررا القيام بثورة ضد تيمور وبدأ فى التحرك نحو تحقيق هذا الهدف، لكن عيون تيمور الخفية فى كل من كيلات وأسفرائين أرسلوا له بنية على بك وشاه ولى فخرج بجيشه فى منتصف عام ١٣٨١ واتجه إلى كيلات حيث حاصرهما، مما أجبر على بك على الاستسلام وطلب العفو من تيمور.

وبعد ذلك تحرك إلى أسفرائين حيث أخذ يدمر كل ما يقابله من مدن وقرى قبل أن يصل إليها وكانت من نتيجة ذلك أن طلب شاه ولى العفو من تيمور، وأرسل له الكثير من الهدايا والأموال ليصفح عنه.

عند هذا الحد قرر تيمور أن يعود مرة أخرى إلى سمرقند لترتيب أوراقه فى هدوء، وأثناء مروره على مدينة هرات أمر رجاله بإلقاء القبض على حاكمها الأمير غياث الدين، وكذلك إلقاء القبض على حاكم كيلات الأمير على بك، وذلك حتى يتم سجنهم فى سمرقند، وقد وصل تيمور إلى سمرقند فى أواخر عام ١٣٨٢م.

ومع مطلع عام ١٣٨٣ خرج مرة أخرى من سمرقند متوجها إلى إسفرائين بغرض احتلالها وإلقاء القبض على شاه ولى، وقد عبر تيمور نهر أموداريا من أمام منطقة ترمذ ونفذ ما خرج له، وبعد أن أتم مهمته وصلته أخبار قيام ثورة ضده فى أراضى السيستان، فاتجه إليها ودخل فى معركة مع حاكمها الذى تحصن داخل أسوار مدينته، فما كان من تيمور إلا أن اقتحم أسوارها وأخذ حاكمها الأمير قطب الدين أسيرا حيث حبسه بعد ذلك فى أحد سجون سمرقند.

ونتيجة اقتحامه لأراضى السيستان أصبح مسيطرا على المنطقة بالكامل بدءا من قندهار فى الشمال الشرقى، وحتى ساحل عمان فى الجنوب.

بعد أن اطمأن على إخماد الثورة فى السيستان عاد مرة أخرى إلى منطقة خراسان الغربية ليقضى بالكامل على كل التابعين لشاه ولى، فاتجه إلى سرخس الواقعة شمال شرق هرات حيث وجد جيوش شاه ولى متحصنة بها.

لذلك دارت معارك عنيفة شرسة بين الطرفين، لكن النصر فى النهاية كان حليفا لتيمور الذى استطاع بفضل هذا الانتصار أن يبسط نفوذه على مدن سرخس وعشق أباد وطوس، وهكذا أصبحت حدوده الغربية هى إيران التى يحكمها الجلائريون الذين شتت شملهم فى بلاد ما وراء النهر قبل عدة سنوات ويحكم بعضًا من بلدانها المظفريون.

وكعادته اكتفى تيمور بما حققه من انتصارات، وعاد بجيشه إلى سمرقند حتى يتسنى له الحصول هو وجيشه على قسط مناسب من الراحة، وكان ذلك فى أواخر ١٣٨٥م .

ومع بدايات عام ١٣٨٧م عبر بقواته نهر أموداريا واتجه إلى خراسان، فمر بقواته إلى مدينتى سارى وفيروزكوه حيث أعلن حاكما المدينتين استسلامهما له ، وكان الغرض الأساسى من حملته هذه المرة هو الاستيلاء على مدينة لوريستان، لكنه أشاع لكل من حوله وعلى طريق سيره أنه يريد تأديب مدينة خوند، وكان يهدف من وراء إخفائه لنواياه أن تطمئن مدينة لوريستان ولا ترهقه أثناء دخوله إليها، نظرا لأهميتها الاستراتيجية الكبيرة، حيث إن استيلاءه عليها يسهل له عملية اقتحام منطقة شمال غرب إيران والتى تحكمها قبيلة جلائر، وأيضا تسهل له عملية اقتحامه لمناطق جنوب غرب إيران التى يبسط آل مظفر سلطانهم عليها، ومن ثم فإن فرض نفوذه على لوريستان يعنى اقترابه كثيرا من إحكام كامل سيطرته على إيران، ولذلك أخفى نيته الحقيقية إلى أن أصبح على مقربة منها فدخلها فجأة وقبض على حكامها وأرسلهم إلى سجون سمرقند، وبعد ذلك دخل أراضى أذربيجان واستطاع أن يبسط نفوذه على مدينة تبريز الواقعة فى الشمال الغربى لإيران، حيث فشل أميرها أحمد الجلائرى فى الوقوف أمام هجوم جيش تيمور لنك الكاسح وهرب من أرض المعركة إلى العراق حتى لا يقع أسيرا فى يدى تيمور لنك.

السيطرة على الكرج

وبلاد الكرج هى جورجيا اليوم، وقد وصلها بعد أن اطمأن على إحكام سيطرته على تبريز، حيث تقدم بقواته وعبر نهر أراس - أراكس حاليا - ودك أسوار مدينة نخشفان الواقعة على أراضى السهل المتاخمة للنهر، وتعتبر مدينة نخشعان أول مدن الكرج أو جورجيا، وما أن بسط سلطانه عليها حتى اتجه إلى منطقة الشمال الغربى، حيث احتل مدينتى تفليس وقرص، وقد استطاع رجاله الإيقاع بملك الكرج الملك بقراط فى الأسر، وكالعادة تم إرساله إلى سمرقند، ولم يحاول بعد ذلك أن يأخذ قسطًا من الراحة، وقرر أن يتجه بقواته إلى أذربيجان، وفى طريق وصوله إليها مر على منطقة شروان ولم يكن حاكمها قد أعلن خضوعه له، فتوقف عندها لكنه لم يدخلها بالقوة بعد أن أعلن أميرها الشيخ إبراهيم ولاءه وطاعته لتيمور .

وأثناء مغادرته لمنطقة شروان وصلت إليه أخبار تؤكد دخول جيش توقتميش خان مغول الجماعة الذهبية على منطقة دربند الواقعة تحت سلطة تيمور، وسأذكر هذه المعركة بالتفصيل عند توضيح المواجهات التى تمت بين تيمور لنك وتوقتميش من أجل السيطرة على أراضى روسيا.

إلى أرمينيا

كان لهجوم توقتميش على دربند أثر كبير فى تغيير فكر تيمور لنك إذ قرر بدلا من الاستمرار فى السير للوصول إلى أذربيجان أن يغير وجهته قاصدا أرمينيا من حدودها الشرقية، وكانت بعض قبائل الأتراك قد أحكموا سيطرتهم عليها وأطلقوا على ملكهم اسم (قرة قيونلو) ومعناه الغنمة السوداء .

وكان الهدف الرئيسى لتيمور هو احتلال مدينة أونيك وهدم قلعتها الحصينة ثم استمر فى توغله عند حدود أرضروم، وفى نفس التوقيت الذى كان تيمور يتوغل فيه فى أراضى أرمينيا متجها إلى أرضروم كان جيشا آخر يقوده ابنه ميران شاه مهمته الأساسية ضمان تشتيت كل جيوش مملكة الغنمة السوداء والعمل على إلقاء القبض على ملكها قره محمد تورش الذى ما أن رأى الخراب الذى حل بمملكته حتى هرب إلى الجبال يحتمى بها حتى لا يقع فى الأسر.

بعد ذلك ترك تيمور مفرزة أمامية قوية لقواته على الحدود مع أرضروم، ونزل بباقى قواته إلى الجنوب لإحكام سيطرته على بحيرة وان ومدينة خلاط ومدينة مومش، وهذه الأماكن هى أكثر الأماكن حيوية فى منطقة جنوب أرمينيا، ومن يسيطر عليها يحكم سيطرته على أرمينيا، وبالتالى كان من السهل عليه أن يدخل بعد ذلك إلى مدينة جيلان الواقعة على الساحل الجنوبى لبحر قزوين، ومن ثم يكون قد سيطر سيطرة تامة على كل أراضى أرمينيا من الشرق إلى الشمال الغربى وأخيرا الجنوب.

وكان يهدف من وراء ذلك إلى تكوين حائط صد دفاعى جيد يحول بين دخول قوات مغول الجماعة الذهبية التى تسيطر على موسكو وكييف إلى الأراضى التى تسيطر عليها قواته فى أذربيجان ومنطقة بحر قزوين وخراسان وإيران التى كانت الفريسة القادمة له .

دخوله فارس

أتم تيمور لنك إحكام سيطرته وفرض سلطانه على أرمينيا فى منتصف عام ١٣٨٧م وكان مترددا بين إكمال مسيرته إلى فارس لإحكام سيطرته عليها وبين الرجوع إلى أذربيجان أو العودة إلى سمرقند.

وكان أثناء فترة تردده قد أرسل برسول إلى زين العابدين الجلائرى بن شاه شجاع يخبره فيه بأن تيمور قادم إليه، فقام زين العابدين بإلقاء القبض على رسول تيمور، فاعتبر تيمور أن تلك هى الذريعة المثلى للقضاء على حكام شمال غرب فارس من الجلائريين، خاصة وأنه طبقا لاتفاق تم بين تيمور لنك وشاه شجاع قبل وفاته يكون زين العابدين تحت وصاية تيمور لنك.

كعادته لم يضيع تلك الفرصة، واتجه من جيلان على بحر قزوين إلى فارس لتأديب زين العابدين، وكانت أول مدينة دخلها هى همذان ومنها اتجه إلى عاصمة فارس مدينة أصفهان .

وقبل أن يصل إلى أسوار المدينة قرر أن يعسكر جيشه أمامها، وكان يهدف من ذلك إلى أخذ جنوده قسطا من الراحة، وفى نفس الوقت استكشاف النيات النهائية لزين العابدين والقادة العسكريين لأصفهان.

قبل أن ينتهى جنود تيمور لنك من نصب خيامهم كان وفد رفيع المستوى يتكون من علماء الدين وكبار التجار قد وصلوا إلى خيمة تيمور حاملين معهم الهدايا الثمينة، وأخذوا يرجونه أن لا يدخل المدينة بحد السيف، وتأكيدا لحسن نيتهم وصدق أقوالهم أخبروه أن أبواب مدينتهم مفتوحة على مصراعيها، فأرسل تيمور

بعضـا من مفـارز جيشـه الأماميـة فدخلت المدينـة دون قتال فـقبل بعـرض سادة أصفـهان، ولكن مع حلول المساء اعـتدى بعض الأهالى على جنوده وقتلوا الكثير منهم فأمر، تيمور جيوشه بالرد على هذا الموقف، حيث اعتبره تمردًا على سلطته، فدخلت جيوشه إلى المدينة وحسمت الأمر بسرعة شديدة لصالحها.

وفى ذلك الوقت كان زين العابدين قد ترك أصفهان وهرب إلى شيراز للاحتماء بابن عمه الأمير شاه منصور حاكم شيراز، فاتجه تيمور بقواته إلى شيراز، ووجد أن الأمير شاه منصور قد كبل بالأغلال ابن عمه الأمير زين العابدين.

لذلك لم يهاجم تيـمور لنك شيـراز بعد ما قـابله الأمير شـاه منصور وأعلن له خضوعه وولاءه، وكـذلك فعل كل قادة جيوش المنطقة، فدخل تيـمور لنك شيراز دون قتـال، وها هى قد أصبحت تحت سلطانه، وقـد تم تقديم الهدايا الثـمينة إلى تيمور لنك وقادة جيوشه، وكان ذلك فى أواخر عام ١٣٨٧م .

وقد قرر تيـمور أن يمكث فترة فى شـيراز ليحصل هو ورجـاله على قسط من الراحة بعد الـتعب الكثير الذين عانـوا منه من كثرة الحروب التى خـاضوها والبلاد التى فـتحوها، لكن أتت الرياح بما لا تشتـهيه السفن، إذ سرعـان ما وصلت إلى تيمور أخبار عن بدء تحرك توقتميش بقواته متجها إلى بلاد ما وراء النهر.

من هو توقتميش

توقتـميش واحد من نسل جنـكيز خان أول فـاتح مغولى للعـالم، والذى كانت حدود الأراضى التى استولى عليها تبدأ من الصـين وحتى روسيا فى أقصى شمال أوربا ومن الهند إلى إيران، وبعـد موتـه أخذت تلك الإمـبراطورية تـتلاشى رويدا رويدا لأسباب عديـدة، منها: تحولهم من وثنيتهم إلى الديانة البـوذية والإسلامية،

١ - أن أوروس اعتمد أسلوب التهديد فى طلبه لإرجاع توقتميش.

٢ - أن تيمور بعدما حقق من فتوحات بسطت نفوذه على كل آسيا تقريبا وأصبح على مشارف أوربا بعد وصوله إلى أرضروم كان يخشى من أقاربه مغول الهوردة الذهبية باعتبار أنهم الخطر الوحيد الذى يهدده .

٣ - التهديد من أوروس كان بالحرب على تيمور .

لذلك استغل تيمور بذكائه هذا الموقف لصالحه، ورفض تسليم توقتميش للخان أوروس، وكان يهدف من وراء ذلك الآتى:

١ - تعميق الجراح والمشاكل الداخلية لمغول الهوردة الذهبية.

٢ - وجود توقتميش معه يعنى أن له عينًا مستقبلية بين مغول الهوردة الذهبية.

٣ - يأمل بعد فتح أراضى الهوردة الذهبية أن يكون توقتميش هو نائبه فى حكمها .

وبمجرد أن غادر مندوب الخان أوروس سمرقند أمر تيمور لنك بتعيين توقتميش قائدا على قلعتين يقعان على الحدود الشمالية المواجهة لاتجاه هجوم قوات الهوردة الذهبية على أراضى الإمبراطورية التيمورية.

كما جهز تيمور جيشًا عهد بقيادته إلى توقتميش بغرض مهاجمته للبلاد الواقعة تحت سيطرة وسلطان مغول الهوردة الذهبية، لكن توقتميش خيب آمال تيمور ولم يثبت جدارته كقائد عسكرى، إذ تغلبت عليه جيوش مغول الهوردة الذهبية.

لكن تيمور لنك لم يسحب ثقته العسكرية من توقتميش بعد هذه الهزيمة، إذ أبلغه بأنه عينه قائدًا على حملة أخرى ستخرج لمهاجمة الهوردة الذهبية شمال نهر سيرداريا، لكن للمرة الثانية فشل توقتميش فى تحقيق الانتصار على بنى جلدته بل كاد أن يقتل، وهرب من أرض المعركة واختبأ فى المراعى المجاورة للنهر حتى عثر عليه أحد ضباط جيوش تيمور لنك وتعرف عليه وأعاده إلى سمرقند.

فجأة مات الخان أوروس، ومن ثم أصبح من حق توقتميش اعتلاء عرش الخانية المغولية فى روسيا وما جاورها من بلاد، خاصة وأن أكثر من نصف قبائل الهوردة الذهبية طالبوا بعودته.

عندما وصلت تلك الأخبار إلى تيمور لنك سمح لتوقتميش بالسفر إلى سارى ليصبح خانا على الهوردة الذهبية، وقد اعتقد تيمور لنك أن الأقدار تكافئه، فها هو توقتميش قد أصبح خانا ومن ثم فإن الهدوء والعلاقات الودية ستكون هى وسيلة التعاون بينه وبينهم .

خيبة أمل تيمور لنك

وصل توقتميش إلى عاصمة بلاده، حيث استقر بها وأصبح هو الخان السيد المطاع على كل بلاد روسيا وبولندا، وأخذ يرتب أوضاع خانيته وكان ممسكا بقوة وقسوة على كل خيوط السلطة بها بين يديه.

بعد فترة وجيزة من اعتلائه كرسى الخان وإدراكه أنه قد أصبح مسيطرا بشكل كلى على الأمور فى الخانية فاجأ كل من حوله بانه قرر أن يشن هجومًا على سمرقند والعمل على القضاء على سلطة تيمور لنك على بلاد ما وراء النهر وكل البلاد الأخرى التى وضعها تحت سلطانه ونفوذه، وعندما أعلن نيته للمقربين له أجمعوا جميعا على رفضهم لما يفكر فيه توقتميش، وكانت أهم الأسباب التى دعتهم إلى الرفض هى:

١ - أن تيمور لنك صاحب فضل عليه - على توقتميش - عندما آواه وقت فراره من سارى.

٢ - أن تيمور لنك يسر له السبل لإحكام قبضته على خانيته الجديدة .

٣ - أن تيمور لنك يملك من القوة الاقتصادية والعسكرية ما يجعله أن يكون أكثر من ند لخانية روسيا، وقد تصل قوته إلى درجة هزيمة تلك الخانية ومن ثم ضياع استقلالها، إذ عند سقوطها فى يده ستكون خاضعة لنفوذ تيمور لنك وسلطانه.

٤ - يجب على توقتميش أن يوطد علاقات المحبة والتعاون مع تيمور لنك حتى يتسنى لتوقتميش التوغل فى كل أراضى أوروبا ومن ثم بسط سيطرته عليها خاصة فى ظل بزوغ الدولة العثمانية فى الأناضول والتى أوضحت عن نياتها فى مهاجمة شرق أوروبا، وبالتالى فإنه فى حالة نجاحها فيها ترمى إليه فإنها ستكون شوكة تقلق مضاجع الخانية فى روسيا وبولندا.

بينما أصر توقتميش على رأيه للأسباب التالية:

١ - أن خانيته والتى تبسط نفوذها على أراضى روسيا وبولندا تحتاج إلى مورد اقتصادى دائم يعوضها عن الجليد الذى يغطى أغلب أراضيها أغلب فترات العام.

٢ - أنه - توقتميش - شاهد بنفسه مدى غنى سمرقند فى الفترة التى قضاها هناك كلاجئ.

٣ - أن تيمور لنك قد توسع بحدود إمبراطوريته باتجاه جنوب غرب آسيا وأيضا ناحية الشمال الغربى منها حيث أصبح على مرمى البصر من بغداد، ومن ثم الشام من بعدها .

٤ - أن تيمور لنك له أطماع فى خانية الهوردة الذهبية، وهو ما دفعه لإرسال جيش بقيادة توقتميش لمهاجمة الأراضى الواقعة تحت نفوذ خانية الهوردة الذهبية - وهى تلك المعارك التى فشل توقتميش فى تحقيق أى نجاحات بها نظرا لعدم كفاءته العسكرية .

٥ - أن تيمور لنك بسط نفوذه على مدينة أوركنج، وقد كانت قديما من ضمن ممتلكات خانية الهوردة الذهبية.

٦ - أن تيمور ليس من أبناء جنكيز خان من زوجتـه الأولى بينما توقتميش يعود نسبه إلى أحد أبناء جنكيـز من زوجته الأولى، ومن ثم فإنه طبقا لتقـاليد المغول فإن تيمور لنك وإمبـراطوريته يجب أن تكون تابعة لنفوذ وسلطة خانيـة الهوردة الذهبية، وبالتالى يجب غـزوه لتحقيق قـواعد جنكيز خـان فى تعاملات المغول مع بعـضهم البعض .

عندئذ أنهى حديثه وقد فهم كل من حوله أنه لا أمل فى إقناعه عن العدول عما يدور فى رأسه، وهكذا بدأت عـجلة الاستعـدادات لشن هجوم على تيـمور لنك فى معسكر توقتميش.

وبينما تيمور لنك يجلس مسترخـيا على كرسى حكمه فى سمرقند بعد أن ضم فارس وجورجـيا وأرمينيا إلى سلطته، واستطـاع أن يقضى على كل الفتن والثورات التى حاول أصحـابها القيام بهـا وهى فى مهدها وصل إليه عـدة رسل من مفارزه العسكرية المرابضة على الشواطئ الشـمالية والغربية لبحر قزوين تخـبره أن توقتميش أصبح على مـقربة من نهر سيـرداريا على رأس جيش كبيـر، وأنه يستعد لـعبوره للتوغل فى أراضى الإمبراطورية التيمورية.

أصدر تيـمور أمرا فوريا لقـواته العسكرية الضاربة بـالتحرك بأقصى سـرعة إلى سرداريا، وأمرهم بإجهـاض هجوم توقتميش والعمل علـى هزيمة قواته وضرورة أسر توقتميش، وتحرك الجيش وبعدها بأقل من سـاعتين أو ثلاثة كان تيمور خارجا على رأس أقـوى فرسانه وأخـذ يسرع الخطى حـتى لحق بجـيشه وقـاده إلى مكان المعركة.

وكان توقـتميش وجنوده قـد نجحوا فى عبـور نهر سرداريا بنجـاح واستطاع أن يقتحم القلعة المكلفة بحـماية السهول المتاخمة للنهر، واستمـر فى زحفه متوغلا فى أراضى إمبراطورية تيمور، واستطاعت بعض القلاع والحصون التى قابلها فى طريقه

مقاومته مـقاومة باسلة وألحقت بجيوشه خسائر بينمـا لم تستطع بعض القلاع المقاومه حيث تم اقتـحامها وإلحاق الـهزيمة السريعة بهـا، أو أن بعضا منا أعلن استـسلامه لقوات توقتميش .

وقد شعر توقتميش بأن حلمـه بالسيطرة على إمبراطورية تيمور لنك على وشك التحقق، خاصة أنه قد أصبح على عدة مراحل من العاصمة سمرقند.

وفى أثناء انتـعاش توقتـميش بآمـال النصر الذى يرى بوادره علـى الأرض ظهر تيمور لنك وجيوشه فى أرض المعركـة مما أربك كل حسابات توقتميش الذى ظن أنه قد فاجأ تيمور.

ونتيجة لتدخل تيمور وجيوشه فى المعركة أمر توقتميش جنوده بالانسحاب بسرعة وعبور نهر سرداريا، وأثناء انسـحاب جيوش توقتميش استمـرت جيوش تيمور فى ملاحقاتها واستطاعت أن تكبدها خسائر كبيرة .

وقد حدث أمـر زاد من سوء حالة تيمـور هو محاولة بعض الأمراء التـابعين له استغلال هجوم توقتميش فى إعـلان راية العصيان عليه - على تيمور - وكان أبرز مثال لهـؤلاء آل صوفى التابعين لتيـمور فى أوركنج، كما شقت عـصا الطاعة على تيمور بعض القبائل الصغيرة .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن تيمـور ركز كل جهوده ومجهـوده الرئيسى نحو جيوش توقتميش حتى اطمأن تماما إلى انسحابهم من أراضيه، وفى نفس الوقت قد تعرضوا لـلخسائر الكبيـرة، فرجع إلى سمرقند وأمـر باستدعاء كل قـادة الحصون والقلاع التى هاجمـها توقتميش وكـذلك استدعاء كل من حاول اسـتغلال الموقف العصـيب الذى مر به وأعلن العصـيان عليه، حـيث عاقب بالقـتل كل من فر من القادة من أرض المعركة، وأغـدق على المجيدين من القادة الذين قاومـوا توقتميش بالهدايا والأموال والترقيات.

مهاجمة توقتميش

بمجرد أن انتهى تيمور من محاكمة قادة جيشه المقصرين أمر الجيش بالتأهب للحركة مرة أخرى إلى سيرداريا رغم ان الوقت قد أصبح شتاء والجو أصبح قارس البرودة، وقد حاول بعض معاونيه إثناءه عن قراره بحجة أنه لا حروب فى الشتاء، فضحك تيمور لما سمعه منهم وأخبرهم أن الشماليين يتعرضون لموجات برد فى بلادهم أقسى من ذلك بكثير، وبالتالى فإن الشتاء الذى يتعرضون له حول سهول نهر سيرداريا الشمالية تجعلهم يشعرون كما لو كانوا فى بدايات فصل الخريف.

وعلى الناحية الأخرى فإن توقتميش كان قد بنى كل خططه طبقا لما فكر فيه المقربون من تيمور، لذلك وقف على الجانب الشمالى من سهول نهر سرداريا يلملم جراحه ويمنح جنوده الراحة اللازمة التى تجعلهم قادرين على عبور النهر مرة أخرى من أجل بسط نفوذهم على أراضى تيمور.

وفى أثناء ذلك كان تيمور يتحرك بقواته بسرعة نحو الشمال متحديا قسوة البرد ووعورة الطريق وقلة الغذاء، وعندما اقتربوا من السهول الجنوبية للنهر وزع تيمور جيوشه وأمرهم بتدمير أية مفارز أمامية لجيش توقتميش يجدونها أمامهم.

نفذ الجنود أوامر تيمور وهاجموا كل المفارز الأمامية لجيوش الهوردة الذهبية وألحقوا بها خسائر كبيرة، مما جعلهم ينسحبون إلى الضفة الشمالية للنهر .

عندئذ أمر تيمور بعض مفارزه بالعبور من أماكن متفرقة والاقتراب من مؤخرة جيشه على أن يكون تحركهم فجائيا وسريعا، وأن يكون هجومهم بأقصى درجات الشراسة الممكنة .

وعندما بدأت المفارز الأمامية لجيوش تيمور فى تنفيذ مهامها بكفاءة استطاعت أن تلحق خسائر كبيرة بجيوش توقتميش الذى ظن أن تيمور يشن عليه هجومه الكبير، فأصدر أمرا فوريا لقـواته بالانسحاب واستمرت مفارز جيش تيـمور تلاحقها وهى تنهش فى مؤخرتها.

عاد بعد ذلك تيمور وقواته إلى سمرقند بعد أن اطمأن تماما إلى الانسحاب التام لتوقتميش، كما أن أيام الشـتاء قد توغلت وأصبح الثلج يغطى كل أراضى الشمال، فاقتنع تيمور باستحالة أن يقوم توقتميش بمهاجمته.

استغل تيمور أيام فصل الشتاء فى تدريب جيوشه وتجميعهم، ومع نهايات فصل الشتاء بدأ فى التحرك نحو الغرب حيث قـرر أن يقتحم بلاد آل صوفى وعاصمتهم أوركنج بالقوة، وأخذ منها الأسـلاب الكثيرة بعد نجاحه فى تدميـرها وتعيينه لأحد أتباعه حاكـما عليها، وسلك الطريق الشرقى بعد ذلك حـيث أدب كل القبائل التى حاولت العصيان عليه وطردها من السـهول، ولم يتركها إلا ومن بقى منهم قد هام على وجهه فى الجبال وكان ذلك فى عام ١٣٨٩م .

وبعد نجاحه فى تلك الحـملة العسكرية اطمأن تماما على سلامـة موقفه الداخلى وأصبح كل تركيزه منصبا حول توقتميش.

تيمور فى عقر توقتميش

أوقف تيمور لنك فتوحاته فى إيران نظرا لإحساسه الشديد بالخطر من توقتميش، لذلك قرر أن يكون شـاغله الأول هو تأمين الحدود الشـمـالية الغربية لإمـبراطوريته خاصة أنه وجد أن تأديب توقـتميش وإخضاعه لنفوذه هذا هو وقـتة بعد أن استطاع تشريد مغول الجات - الجغطائيـين -بالإضافة إلى سيطرته التامة على الموقف فى كل بلاد آسيا الوسطى وأيضا الجنوب الغربى منها.

لذلك قرر أن يفعل ما لا يمكن أن يخطر ببال توقـتميش وهو أن تتوغل قواته - تيمور - فى أراضى توقتميش.

وقد بنى تيـمور لنك رأيه هذا بناء على اسـتراتيجية حددها لنفسـه وهى تتكون من:

١ - أن لا يسمح لنفسـه أن يكون فى موضع الدفاع أمام توقـتميش، نظرا لأن توقتميش يعتمد على الفرسان فى حربه باعتبارهم القوة الضاربة له.

٢ - أن يعمل على أن يكون هجومه سريعا ومفاجئا.

٣ - أن يتواجد دائما فى المكان الصحيح وفى الوقت الصحيح.

وبناء على هذه الأفكار خرج بجيـشه ليلاقى توقتميش وجيـوش الهوردة الذهبية فى عقر دارهم، وكان إجمالى جيشه حوالى ١٠٠ ألف جندى أغلبهم من الفرسان والباقى لإنجاز أعمال الشئون الإدارية التى تخص متطلبات واحتياجات الجيش.

وأثناء قيادته للجيش فى حركته نحـو سارى مرض بالحمى لدرجة أن المقربين منه خشوا أن يـكون هذا المرض هو مرضه الأخيـر لكنه تعافى من مرضه بعـد حوالى شهر ونصف الشهر، وقد اختار أن يصل إلى عـقر دار توقتميش من خلال عبوره سلسلة الجبال الوعـرة التى تسمى جبال قرة داغ، وقـد هطلت الثلوج بغزارة على جيوش تيمور مما أجبرها على الوقوف وعدم استكمال المسير انتظارا لحلول ربيع عام ١٣٩١ الذى ما إن حل على المنطقة حتى بدأ تيمور فى الحركة من جديد.

وقد رصدت تحـركاته المفارز الأماميـة وعيون توقتمـيش فأرسلَ مندوبا عنه إلى تيمور لنك وهو حـامل له الهدايا وخطابًا يطلب فيه منه أن لا يسـتمر فى مهاجـمته وأنه يعلن أسفه واعتذاره عما حاوله من اقتحام لعاصمته سمرقند.

تعامل تيمور مع المندوب باحترام لكنه أخذ مغزى الرسالة من منطلق أنها محاولة من توقتميش لكسب الوقت لمعاودة مهاجمـته، وعند وداعه لمندوب توقتميش أخبره

أن على توقتميش أن يرسل بكبير وزرائه على بك لإتمام إجراءات الصلح وعدا ذلك فإن توقتميش سيعزل من على خانية الهوردة الذهبية بعد أن تشتت شملَ جنوده جنودُ تيمور .

سار تيمور لمدة ستة أسابيع بجيوشه فى هذه الطرق الجرداء إلى أن استطاع الوصول إلى حوض نهر سارى، وهذا يعنى أنه أصبح يبصر قصر الخان، وقد استغل تيمور وصوله إلى هذه الأراضى السهلة بما تضنه من أشجار وخيرات فى إراحة خيوله وجنود من عناء السفر الطويل الشاق بين ممرات الجبال الجرداء.

ترك تيمور جيشه لحياة الراحة واللعب لمدة يوم واحد فقط بعد وصولهم إلى حوض نهر سارى، ومع مطلع فجر اليوم الثانى أصدر أوامره لقادة الجيش بعمل طابور اصطفاف للقوات، وبمجرد أن اصطفت القوات قام تيمور باستعراضها على صوت الموسيقى العسكرية ،ومع نهاية استعراضه لقواته أمر بأن تتوزع على هيئة تشكيلات، وطلب من كل قائد كتيبة أن يعطى تمام استعداده لقائد لوائه، وقادة الألوية يعطون تمام ألويتهم لقادة الفرق، وقادة الفرق إلى قادة الجيوش، وقادة الجيوش إلى القائد العام للجيش، وفى النهاية وقف قائد عام الجيش وأعطى تمام الجيوش لتيمور لنك .فأمر براحة الجيش، فانصرفت القوات يلهو أفرادها مع بعضهم البعض.

ها هو تيمور قد اطمأن على استعدادات جيشه وكيف أن روح مقاتليه المعنوية عالية فى عنان السماء خاصة مع رؤيتهم لأسوار سارى أمامهم، وكانت سعادة تيمور لنك غامرة لأنه وطأ بجيوشه على أراضى أوروبا بعد أن أحكم سيطرته بالكامل تقريبا على آسيا ولم يبق أمامه إلا أن يبسط سلطانه عليها.

الاقتراب من خط المواجهة

كانت منطقة السهل المتاخم لحوض نهر ساريا خالية تماما من أى سكان، وحتى يبدأ تيمور فى التحرك اختار مقدمتين للجيش، منح قيادة الأولى منهما إلى ابنه عمر، ومهمته الأساسية هى التوصل إلى مكان تمركز جيوش توقتميش، وقد بلغت القوات التى قادها عمر بن تيمور عشرين ألف مقاتل وكانت المقدمة الأخرى مهمتها الانضمام للمقدمة الأولى لنجدتها والوقوف فى وجه جيوش توقتميش بعد أن يعثر عليه عمر بن تيمور .

تحرك عمر بن تيمور بقواته حتى وصل إلى منابع نهر توبول مغبر من الضفة الشرقية له، حيث كان يتحرك إلى الضفة الغربية، حيث عثر على ست مواقد للنار لم تكن نيرانها قد خمدت وبالتالى كان هذا أول دليل على وجود قوات من الهوردة الذهبية، وتم إرسال هذا الخبر إلى تيمو،ر وبمجرد وصول هذه المعلومة إلى تيمور أرسل عددا من أمهر قصاصى الأثر للانضمام للقوة التى يقودها عمر، ثم أمر جيوشه بالتحرك البطىء إلى منابع نهر توبول، وكان يهدف من وراء ذلك أن تكون تحركات الجيش محسوبة بدقة خشية أن يتعرضوا لهجوم مباغت من قوات الهوردة الذهبية.

لم تمض أكثر من ثمانية وأربعين ساعة حتى وصلت أخبار طيبة لتيمور إذ بلغه أن قصاصى الأثر اكتشفوا آثار أكثر من سبعين موقدا للنار، وأن هناك آثاراً لمرور كثير من الخيل.

فى الحال أصدر تيمور أوامره لبعض من أكفأ وأجرأ أمرائه المشهور عنهم القيام بأعمال خارقة فى ميادين القتال للذهاب إلى مكان تلك المواقد والعمل على

وأثناء سير قوات تيمور لنك اشتبكوا مع أحد المفارز الأمامية لتوقتميش واستطاعوا أن يحسموا الأمر لصالحهم، وأسروا أغلب أفرادها حيث تم استجوابهم، وقد أقر رجال الهوردة الذهبية أن خطة توقتميش تقوم على استدراج تيمور للتوغل فى أراضى روسيا إلى أن ينال منه التعب فينقض عليه توقتميش، وأخبروا تيمور كذلك أن توقتميش ليس بعيدا عنه، إذ يبعد عنه مسافة مسير يوم واحد تقريبا.

ونظرا لخطورة وأهمية تلك المعلومات أمر تيمور رجاله بحفر خندق كبير حول مكان تمركزهم، وكثف من دوريات الحراسة ليلا، وفى نفس الوقت أمر ابنه عمر بالخروج فى مفرزة كبيرة للوصول إلى مكان تمركز قوات توقتميش، لكن مع الحذر وتجنب الدخول فى مواجهة عسكرية معهم.

مع بزوغ فجر اليوم التالى تحرك عمر تنفيذا لأمر تيمور، وفى نفس الوقت أمر تيمور بخروج كتائب تعمل على تمشيط المنطقة المحيطة بهم للتأكد من خلوها من رجال توقتميش، وقد فرح جدا عندما أخبرته تلك الكتائب بعدم وجود مفارز لتوقتميش،حيث إن هذا معناه صدق قول رجال المفرزة التى تم أسرها، وبعد ذلك وقبل حلول مساء تلك الليلة كانت رسائل ابنه قد وصلت له لتخبره أنهم أصبحوا على خط تماس مع مؤخرة جيوش الهوردة الذهبية.

أمام هذا السيل المتدفق من الأحداث الخطيرة لم يكن أمام تيمور إلا عقد اجتماع لكل قادة وأمراء الجيوش حيث أخبرهم أنه قرر التحرك مع أول ضوء يظهر للنهار الجديد ليلتحم مع المفرزة المتقدمة التى يقودها ابنه عمر.

مع الفجر تحرك تيمور بقواته، ولم يمض وقت طويل حتى كان قد لحق بمفرزته الأمامية وأصبحت مؤخرة جيش الهوردة الذهبية فى مجال حركته، وفى تلك اللحظة شعر تيمور أن النصر حليفه، إذ إن توقتميش انعدمت أمامه أى مجالات

لفعل أى مناورة تكتيكية يمكن أن يفاجئ بها تيمور، كما أن وجوده على نفس خط المسيـر أمام تيمور حـتم عليه - أى توقتـميش - أن يواجه المصاعب من الحيوانات المتوحشة التى خرجت للتو من بياتها الشتوى.

وفى ظل هذه الأفراح الداخلية التى كان يعيشها تيـمور عكر صفو مزاجه أخبار مقـتل ثلاثة من كبار ضبـاطه مع جنودهم فى كمين نـصبته لهم قـوة من الهوردة الذهبية، إلا أنه لم يجعل هذا الخبر سببا فى تغيير خطط أمن قواته، لأنه مقابل من ماتوا من عنده استطاعت قواته أن تقتل المئات من جنود وضباط توقتميش.

فجأة لاحـظ تيمور أن قوات المؤخـرة للهوردة الذهبية قـد أسرعت خطاها فلم يحاول أن يجاريها فى سـرعتها طالما بقيت تحت مرمى بصـره، ثم وجد أنها توقفت فأدرك أن هذا المكان هو الذى ستدور على أرضه المعركـة المرتقبة والتى فى سبيلها ترك - تيمور - طموحاته فى فارس والعراق والشام، بينما توقتميش يرغب فى تلك المواجهة لأن معنى انتصاره فيها أنه قد ورث كل إمبراطورية تيمور.

الاستعداد بالتشكيل الهجومى

أمر تيمور رجاله بأن يتوقفوا عن المسير وأن يحافظوا على أوضاعهم وتشكيلاتهم أثناء فتـرات راحتهـم، عندئذ بدأ رجال الشئـون الإدارية ينصبـون الخيام للفـرسان المحاربين وجزء منهم بدأ فى إعداد وجبة طعام ساخنة.

وقبل أن ينتهى الفرسان من تناول طعامهم كـان عمر بن تيمور يعبر الطريق عن طريق نهر سوك ومعه عشرون ألف فارس، وذلك للالتفاف حول قوات توقتميش، وقد قابل عمـر أثناء مناورته للوصول إلى مؤخرة الجيش العديد من المفـارز الأمامية

والجانبية التى وضعها توقتميش فى تلك الأماكن لإعاقة أى هجوم على جوانب جيشه من جانب تيمور، وقد تعامل عمر بكل كفاءة مع هذه المفارز واستطاع أن يقضى عليها، بل وأسر بعضًا من أفرادها فعلم منهم أن هناك قوات أخرى قادمة من القوقاز فى طريقها للانضمام لقوات توقتميش والتى كان يقدر عددها فعليا بحوالى ٢٠٠ ألف فارس، أى أن قوات توقتميش ضعف عدد قوات تيمور لنك.

وقبل أن يحل المساء كان عمر قد عاد إلى معسكره حاملا تلك الأخبار، فاستدعى تيمور كبار القادة والأواسط منهم ليقوم بتلقينهم آخر الأوامر، وفى نفس الوقت أمر كل الجنود والفرسان بالنوم وفى نفس الوقت تتحرى كتائب الحراسة الدقة واليقظة.

استمر اجتماع تيمور بقيادات جيشه لمدة ساعة واحدة أخبرهم فيها أن خيالته الثقيلة ستكون فى الميمنة، وأن عليها يقع عبء بداية المناورة العملية على أرض المعارك، بينما تبقى ميسرة الجيش فى حالة سكون حتى تتضح صورة المعارك التى تخوضها ميمنة الجيش، وأنه سيكون كالعادة على رأس قلب الجيش، وخلف الميمنة تتمركز القوات الاحتياطية الجاهزة للتدخل فى أرض المعركة لسد أى ثغرة تكون قد حدثت فى القوات الأمامية .

وفى هذا الاجتماع سمى قادة أجنحة الجيش حيث منح قيادة الميمنة لابنه ميران شاه، ويساعده فى القيادة الأمير سيف الدين بهادر، ويقود الميسرة ابنه عمر شيخ، وكان القلب تحت القيادة الاسمية لحفيده سلطان محمد، وأبقى تيمور لنفسه القيادة الخالصة للقوات الاحتياطية بالإضافة إلى الإشراف على قيادة قلب الجيش.

وبمجرد أن انتهى من التلقين أمر كل هؤلاء القادة ومساعديهم بالنوم فى خيمته بينما ظل هو جالسا على كرسيه يغفو قليلا ليصحو من جديد.

وعلى الجهة المقابلة كـان توقتميش يفعل تقريبا نفس ما يفـعله تيمور لنك حتى أن تشكيله الهجومى للقتال يكاد يكون متطابقا مع التشكيل القتالى لقوات تيمور، الفرق الوحيد بينهما أن تـوقتميش لم يكابد تعب السفر كتيـمور ورجاله، بالإضافة إلى أنه يحارب على الأرض التى تربى عليـها وفى وسط البيئـة التى عاش فيهـا، بالإضافة إلى أن عدد قواته ضعف عدد قوات تيمور.

الأمر بالقتال

قبل طلوع الفجر كان قائد كل جيش يقوم بإجراءات التمام النهائى لقواته قبل أن يعطيهـا إشارة البدء بالهـجوم حيث اصطفت قـوات كل طرف طبقا للـتنظيم المتفق عليه.

ومع بزوغ أول ضوء مع مطلع الفجر بدأت ميمنة تيمور فى أداء ما هو مطلوب منها حيث اندفع الأميـر سيف الدين باتجاه ميسرة توقتمـيش، واستطاع فى هجومه أن يلحق بهـا الأذى والدمار، مما دفع قـائدها إلى غلق عرض الجـبهـة التى يدافع عنها، وبالـتالى بدأ يحدث تداخل بـين القوات، ولم يمض وقت طويل حـتى كان ميـران شاه ابن تيـمور قـد التصق بقـوات سيف الدين مما أثر على قـدرة ميـسرة توقتميش، ليس على الهجوم بل على قـدرتها على الاستمـرار فى الوقوف على الأرض التى تقف عليـها، لذا بدأت فى التراجع والتـقهـقر، وهذا ما دفع تيـمور للقيام بمناورة تكتيكيـة رائعة، إذ قرر أن يدفع بقلب جيشه ليساند مـيمنته حتى يكون التقهقر التام لقوات الميسرة لجيش توقتميش .

وقد حـاول توقتـميش إنقاذ مـا يمكن إنقاذه، لكن لما رأى تدخـل قوات القلب لتيـمور غير توقـتميش من تكتيـكه، وقرر أن يهاجم بكل شراسـة ميسرة جـيوش تيمور، وحـقق توقتميش بعض النجـاح نظرا لتقهقـر ميسرة تيمـور للخلف فاندفع توقتميش بجنود قلب جـيشه متوغلا فى المسافة الفـاصلة بين قوات القلب والميسرة للجيش التيمورى.

فى تلك اللحظة أصدر تيمور الخبير أوامره لقواته الاحتياطية بالهجوم على قلب توقتميش، وأن تقوم ميسرة الجيش التى كانت قد تراجعت بعملية التفاف حول قلب وميمنة توقتميش، وبذلك أصبح توقتميش فى وضع سيء للغاية، خاصة بعد ما رأى اندفاع كتيبة من المقاتلين الأشداء تتجه نحو حملة أعلامه، وقدرتهم على قتل حامليها .

أصاب الذعر والخوف توقتميش، حيث أصبح قاب قوسين أو أدنى من القتل أو الأسر، فآثر أن ينسحب من أرض المعركة، ولما انتشر الخبر وسط جنوده الذين كانوا فى وضع سيء حاول البعض منهم الهرب من أرض المعركة لينجو بنفسه بينما استسلم البعض الآخر.

لم يسكت تيمور بعد تأكده من الانتصار، بل أمر رجاله بمطاردة فلول الهاربين، وكان يهدف من وراء ذلك أن يجد توقتميش مختبئا فى أحد الكهوف أو الغابات أو المزارع، لكنه لم يجده، فأعلن وقف العمليات العسكرية.

بمجرد صدور هذا القرار منه أصبح المجهود الرئيسى لجنوده هو القيام بعمليات السلب والنهب للمعسكرات الحربية للهوردة الذهبية، وأيضا سلب ونهب مواشى وأغنام السكان.

فى تلك اللحظة بدأ تيمور يتعامل مع بلاد الهوردة الذهبية باعتبارها أحد البلاد الخاضعة لنفوذه وسلطانه، لذلك بدأ فى إصدار الكثير من القرارات التى تنظم سير الأعمال بها من كافة النواحى الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتجارية والمالية، وكان ذلك فى عام ١٣٩١م.

لم يمض وقت طويل على وضعه التنظيمات الجديدة لبلاد الهوردة الذهبية حتى قرر الرجوع إلى سمرقند ليتابع أحوال إمبراطوريته، وما حدث فيها طوال فترة غيابه وأيضا ليكون قريبا من حلمه وهو الاستيلاء على ما بقى من أراضى إيران.

إلى إيران

بعدما أنهى تيمور أعماله فى بلاد الهوردة الذهبية رجع إلى سمرقند عاصمته المحببة لينال هو ورجاله قسطا من الراحة بعد المجهود الشاق الذى بذلوه فى حرب الهوردة، المهم فى الأمر أن تيمور لم يركن إلى الراحة فى سمرقند، بل أخذ فى تقصى أحوال البلاد وما جرى بها أثناء فترة غيابه، ثم أمر رجاله بأن يضعوا الجيش فى وضع الاستعداد للحركة بعد انقضاء شتاء ١٣٩١ وحلول ربيع ١٣٩٢م.

مع بدايات تحسن الجو وميله إلى الدفء بدأ تحرك تيمور من سمرقند بغية القضاء على آل مظفر الذين يحكمون إيران الغربية، وقبل اندفاعه إليها توقف بعض الوقت للقضاء على طائفة دينية ظهرت على الحدود الشمالية لإيران، وكان اسم هذه الطائفة الطائفة الحروفية وهى طائفة صوفية كانت تنادى بأن الأصل فى معرفة الله هو اللفظ، وكان مؤسس هذه العقيدة هو فضل الله الحروفى، والذى دفع تيمور للقضاء على حركته وعليه هو شخصيا أن الحروفى ادعى أنه خليفة الله على الأرض، وفى سبيل نشر أفكاره كتب ثلاثة كتب، وبطبيعة الحال فإن الحروفى ورجاله من الأتباع لم يمثلوا عائقا يذكر أمام تيمور أثناء قضائه عليهم، وتابع سيره لأصفهان وشيراز .

وكان شاه منصور الذى هرب من تيمور أثناء حملته الأولى على إيران واختبأ بالجبال حتى لا يقع فى الأسر فى يد قوات تيمور نجده قد استغل انشغال تيمور الطويل فى حرب الهوردة حيث خرج من مكمنه وبدأ رويدا رويدا فى استمالة أعضاء الأسرة المظفرية، وأخذ يثير حماستهم، فانضم له عدد من أمراء تلك الأسرة وأصبحوا تابعين له .

وحتى يثبت لهم جديته وقدرته على الوقوف فى وجه تيمور فإنه قام باعتقال ابن عمه زين العابدين الموالى لتيمور فى حكم أصفهان، وبعد ذلك قام بوضع كل أملاك الأسرة الممتدة إلى مدينة شيراز ومدينة أبرقوه تحت سيطرته، لكن زين العابدين بمساعدة بعض من أتباعه استطاع الهروب من السجن وحاول استرجاع ملكه الذى سلبه شاه منصور، فخاض معركة ضد قوات شاه، لكنه لم يستطع أن يحسمها لصالحه، بل انتهت بوقوعه فى الأسر، وكان أول شىء قام به شاه هو أن فقأ عينيه ووضعه فى السجن تحت الحراسة المشددة، وقد اتخذ شاه منصور من مدينة شيراز عاصمة له، واستمر حاكما باسطا نفوذه على تلك المدن من عام ١٣٨٨ إلى أن دهمته قوات تيمور فى عام ١٣٩٢م.

وقد بدأ تيمور بدخول شيراز بعد أن هدم أسوار قلعة سفيد القوية، وكان أول عمل قام به رجال تيمور هو تحرير زين العابدين من سجنه، وكان شاه منصور قد هرب من شيراز فى نفس لحظة اقتحام رجال تيمور لقلعتها الحصينة، وهرب بأغلب قواته إلى مدينة باغستان وهى على مسيرة يوم واحد من شيراز.

عندما علم تيمور بذلك اتجه خلف قوات شاه منصور بأقصى سرعة ممكنة، وبينما جيوش تيمور تتوقف أمام باغستان وكان الليل قد حل على المنطقة إذ بجيوش شاه منصور تفاجئها بهجوم قوى مركز استهدف مركز قيادة الجيش وهو فى نفس الوقت مقر إقامة تيمور، وقد تعرض تيمور لخطر شديد كاد أن يفتك به ويودى بحياته لولا أن شاه رخ بن تيمور استطاع أن يضرب عنق شاه منصور من الخلف بالسيف ففصلها عن جسده، فحدث اضطراب فى جيش شاه منصور وبدأ فى الانسحاب إلى شيراز، ولم يستطع الجيش التيمورى ملاحقة جنود شاه منصور نظرا للاضطراب الشديد الذى عانوه منه نتيجة مفاجأة شاه منصور وجنوده لهم.

مع أول ضوء للشمس تحرك تيمور باتجاه شيراز، فوجد أبواب المدينة مقفلة، فضرب الحصار حولها، ولما رأى أهلها الحجم الهائل لقوات تيمور وفى نفس الوقت كانوا قد علموا بمقتل شاه منصور، لذا أثروا الاستسلام حيث خرج وفد من عظماء الأهالى واتجهوا إلى مقر إقامة تيمور حيث منحوه الهدايا وأعلنوا أمامه رضاءهم عنه وعن أى حاكم يعينه على المدينة. فدخل تيمور المدينة وكان أول قرار أصدره بعد دخولها هو مصادرة كل أملاك وأموال شاه منصور، وقبل حلول المساء كان أغلب أمراء آل مظفر قد وصلوا إلى مقر إقامة تيمور وأعلنوا خضوعهم له وأقسموا له يمين الولاء .

أقام تيمور فى شيراز للاستجمام ومن ناحية أخرى لترتيب أوضاع إيران التى أصبحت كلية تقريبا تحت يده. .وأثناء وجوده فى شيراز قرر أن يتجه ناحية الغرب لاجتياح بغداد ليكون بالقرب من الشام ليصل إلى حلمه الكبير مصر.

وبينما يفكر فيما هو آت زادت شكوى علماء الدين وأفراد الشعب من الممارسات القمعية التى كان الولاة من أمراء آل مظفر يمارسونها ضدهم، فما كان من تيمور إلا أن اتخذ القرار الذى كان يحلم به وهو التخلص من كل آل مظفر، فأمر باعتقال كل أفراد العائلة حتى من أعلن منهم ولاءه له، وبعد خمسة أيام من اعتقالهم أمر بقطع رقابهم جميعا، وأصدر أمرا بمصادرة كل الأملاك لتلك العائلة المنكوبة وعين حاكما على إيران من أتباعه، وغادر شيراز إلى همذان للاستمتاع بمناخها الجميل ومروجها الخضراء، ومن هناك أرسل بعض المفارز من جيشه للقضاء على بعض عصابات قطاع الطرق التى كانت تسلب التجار والمسافرين فى بلاد الكرج - جورجيا والتركمان فى الطرق الجبلية، ومنح باقى أفراد جيشه راحة سلبية استعدادا لدخول بغداد.

إلى بغداد:

كان من الطبيعى أن يتجه تيمور إلى بغداد، وأن يعمل على دخولها عنوة نظرا لما كانت تسببه له من مشاكل جمة عن طريق المخططات التى كان يقوم بها حاكمها أحمد بن أويس الذى كانت كل مخططاته تهدف إلى إجهاض آمال تيمور فى بسط نفوذه على كل مناطق وسط آسيا وروسيا فى أقصى الشمال، وأيضا رغبته فى نزع ملك آل عثمان من الأناضول وأرضروم.

ومن وجهة نظر تيمور فإن أحمد بن أويس كان يشكل خطرا داهما عليه نظرا لأنه رأس الحربة التى حاول أعداء تيمور أن يطعنوه بها، لذلك نجد أن توقتميش عندما حاول غزو بلاد تيمور فى عام ١٣٨٧م حاول التحالف مع أحمد بن أويس، وحتى يؤيد توقتميش جديته فى هذا التحالف أرسل ٥٠ ألف مقاتل من خيرة جنوده إلى دربند فى أذربيجان ليهاجموها من الشمال، وأن يزحف أحمد بجنوده إليها فيهاجمونها من الجنوب الغربى.

وكانت الحجة الرئيسية المعلنة لتيمور من أجل دخوله بغداد هى تلك المكاتبات التى وصلته من أعيان وزعماء بغداد يطالبونه فيها بأن يبسط نفوذه عليها ليخلصهم من الحكم المستبد لأحمد بن أويس الذى كان يسىء معاملة الشعب والقادة والأمراء.

أما السبب الحقيقى لرغبة تيمور فى دخول بغداد هو أنه كان يعتبرها من ضمن أملاك أجداده التى تم انتزاعها منهم، بالإضافة إلى أن وجوده بها وبسط نفوذه عليها تعتبر خطوة هامة من أجل تحقيق حلمه فى بسط نفوذه على كل العالم القديم تقريبا.

بعد أن تحرك تيمور من همـذان لم يشأ أن يفصح صراحة عن وجهته الحقيقية إلى بغداد حتى لا يستدعى أحمد بن أويس الجيوش المصرية والتى كانت بغداد عمليا خاضعة لنفوذها، أو أن يتحالف مع العثمانيين. لذلك أرسل فرقة من جيشه باتجاه بلاد التركمان، وبعد أسبوع تحرك بقوته الضاربة بعد أن أعلن للجميع أنه سيلحق بطليعة جيشه فى التركمان.

وقد اتخذ تيمور طريقا غير مألوف لدخول العراق؛ إذ دخلها من السهل المحيط لنهر الزاب بعد أن عبر سلسلة الجبال الوعرة المتاخمة له، وقد فعل ذلك حتى يكون دخوله إلى بغداد مفاجئا، وقبل أن تصل أية أخبار عن تحركاته إلى أحمد بن أويس عن طريق جواسيسه، ونظرا لأهمية رغبته فى الحفاظ على سرية تحركاته، ورغبة منه فى تحقيقها فى أقصر وقت ممكن كان يسير بقواته ليلا على ضوء المشاعل.

وقد نجح تيمور فيما أراد، إذ فجأة أصبح أمام أسوار المدينة بجيشه الضخم مما دفع حاكمها أحمد بن أويس إلى الهرب منها متجها نحو الشام، وقد حاول بعض جند تيمور مطاردته وكادوا أن يلحقوا به لكنه ترك قافلته التى تضم نفائس أمواله وممتلكاته وهرب حيث استطاع أن يعبر نهر الفرات.

بمجرد أن شاع خبر هرب أحمد بن أويس قام سكان بغداد بفتح أبواب مدينتهم لتيمور وقواته فدخلها دون قتال، وكان ذلك فى عام ١٣٩٣م.

وجدير بالذكر أن هناك روايات متضاربة عما فعله تيمور بأهل بغداد بعد دخوله إليها، إذ يذكر المؤرخون المصريون ومؤرخو الشام أن تيمور قام بأعمال تنكيل ضد أهالى المدينة وكان أبرزها قيامه بقتل سبعين من علماء الدين والكثير من كبرائها، بالإضافة إلى قيامه بمصادرة أموال أهلها ثلاث مرات متتالية.

بينما يذكر المؤرخون التيموريون أنه عامل السكان بكل لطف وحب، وكان له الفضل فى إغلاق كل بيوت الدعارة واللهو فى المدينة كما حرم على أهلها شرب الخمور، كما أنه قام بنقل أمهر الصناع من كل الحرف إلى سمرقند.

أحمد بن أويس يعود لعرشه بمساعدة مصرية

ها هو تيمور قد دخل بغداد، وأصبح ينظر منها إلى دمشق، ويحلم بدخول مصر التى فشل أجداده فى غزوها، والتى كانت تعتبر ذات أهمية خاصة بالنسبة له لإيمانه بأنه إذا دخلها دانت له كل الدنيا.

لذلك كان أول شىء فعله بعد أن عين نائبا عنه على بغداد أن أرسل إلى مصر رسالة يذكرها فيها بالحروب التى دارت بين أجداده وأجداد حكام مصر، ولكنه لم يذكر فى خطابه أية إشارة إلى هزيمة أجداده، إنما انتقل إلى ما يريده حيث طلب بأن يكون هناك خط تجارى يصل بين مصر وأرجاء إمبراطوريته التى تبدأ من العراق وإيران وتنتهى مع آخر حدود بلاد ما وراء النهر وجورجيا فى الشمال.

عندما قابل سلطان مصر مندوب تيمور وقرأ منه الرسالة قام بقتله وأمر الجيوش المصرية بالتحرك إلى الشام، وأرسل إلى نائبه على الشام يطلب منه وضع الجيوش على أهبة الاستعداد، حيث إن السلطان المصرى لم يغفر لتيمور جرأته فى الاستيلاء على أحد العواصم الخاضعة للنفوذ المصرى، لذلك قرر أن يؤدب تيمور وجيوشه على فعلتهم تلك.

وفى نفس الوقت الذى كان سلطان مصر يسابق الزمن لتأديب تيمور كان تيمور قد خرج بجيوشه من بغداد متجها إلى الأناضول لينازع العثمانيين حكمهم، فغضب السلطان العثمانى لذلك غضبا شديدا، وأرسل إلى مصر يطلب منها أن تقبل التحالف معه لتأديب تيمور.

وافقت مصر على طلب العثمانيين، حيث اتفق الطرفان أن يزحف الجيش العثمانى باتجاه الموصل وأن يتحرك الجيش المصرى ليدخل بغداد.

استطاع الجيش المصرى الوصول إلى بغداد ودخولها بعد أن استطاع إلحاق الهزيمة بجنود تيمور، وكان أول شىء فعله السلطان المصرى هو أنه أعاد أحمد بن أويس إلى عرشه، ومن ثم أصبح أحمد بن أويس تابعا شكلا ومضمونا لمصر.

عندما علم تيمور بأمر ما حدث لبغداد على أيدى الجيش المصرى قرر أن يعود إليها، لكن وصلته فى نفس هذا التوقيت أخبار عن وجود تحركات عسكرية كثيفة لقوات الهوردة الذهبية على حدود بلاده عند منطقة أذربيجان، فصرف النظر فى أمر ما حدث لبغداد حيث قرر أن يعود إليها بعد أن يقضى على خطر الهوردة الذهبية الذى يوشك أن يحتل بلاده، وكان ذلك فى أواخر عام ١٣٩٤م.

مواجهة أخرى مع توقتميش

كان توقتميش قد نجح فى إزالة آثار الهزيمة المهينة التى تعرض لها فى عقر داره على يد تيمور لنك فى عام ١٣٩١،حيث استطاع أن يفرض نفوذه مرة أخرى على كل أمراء الهوردة الذهبية، كما استطاع أن يخمد أية ثورات حاول الأمراء الروس والبولنديون القيام بها ضده بغرض الانفصال بأراضيهم عن سلطانه، ولذلك قرر أن يدخل فى مواجهة ثانية مع تيمور بغرض استعادة كرامته المهدرة وعرشه السليب، وكانت حجته فى أن يحاول دخول أراضى إمبراطورية تيمور هو العمل على استعادة أراضى أذربيجان التى كانت من قبل لسلطة رجال الهوردة الذهبية.

وفى سبيل ذلك عقد توقتميش التحالفات مع سلطان العثمانيين فى الأناضول، وكذلك مع سلطان مصر، وبطبيعة الحال فإن تيمور لنك كان يعرف بأمر تلك التحالفات، لذلك أرسل بعضا من مفارز جيشه إلى أذربيجان لتكون قوات دعم إضافية للقوات المحلية الموجودة بها، بينما قرر هو أن يقوم بنقل عملياته العسكرية إلى جهة الشمال فى جورجيا حتى يجبر توقتميش على عدم التقدم نحو أذربيجان، حيث إن وجوده فى جورجيا معناه قدرته على الوصول إلى عاصمة توقتميش مدينة بركة سراى.

هزيمة قاتلة لتوقتميش

كان توقتميش مصرًا على انتزاع أذربيجان من سلطة تيمور، وقد بنى رأيه على أساس حلول التعب والإنهاك بقوى تيمور من كثرة السفر والحروب، كما أن احتلاله لها سيعطيه ميزة التحرك بسهولة من وإلى بلاد ما وراء النهر، كما أن بسط سيطرته عليها معناه أن كل إمبراطورية تيمور قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من سلطته.

لذلك لم يعبأ كثيرا بتحركات تيمور فى جورجيا، واستمر فى الاقتراب من أذربيجان وهو يحطم كل ما يقابله من قلاع وحصون تابعة لتيمور، وهذا الأمر دفع تيمور إلى ترك جورجيا والتحرك بقواته إلى أذربيجان، حيث نجحت طلائع جيشه فى صد هجوم توقتميش الذى آثر الانسحاب إلى بوابة مدينة دربند، وكان ذلك فى شتاء ١٣٩٤.

انتظر تيمور انتهاء الشتاء ومع بدايات عام ١٣٩٥ خرج بجيوشه إلى دربند، حيث التقى جيوش توقتميش واشتبك الجيشان فى معركة عنيفة صعبة، وكاد توقتميش أن ينتصر لولا أن استطاع الاحتياطى الاستراتيجى لجيوش تيمور لنك أن تجهض هجوم توقتميش، وأن تجبره هو وقواته على التقهقر بعد أن تعرض لخسائر جسيمة، وكانت أبرز خسائر قوات تيمور هو إصابة كل من ميران شاه بن تيمور وكذلك الأمير سيف الدين.

وأثناء انسحاب قوات توقتميش من أرض المعركة انفرط عقد جيشه، حيث قرر بعض منها الانضمام للخدمة تحت سيطرة تيمور لنك والبعض الآخر فر إلى الجبال أو الغابات لينجو بحياته .

المطاردة والتطهير

قام توقتميش بعد الهزيمة المرة التى لحقت به لثانى مرة على يد تيمور لنك بلملمة من بقى من جنوده، وحاول أن يسرع المسير للوصول إلى عاصمته.

بينما كان تيمور سائرا بجيشه باتجاه العاصمة بنية دخولها وتحطيم حكم خانات الهوردة الذهبية، فاتجه إلى وادى الفولجا، وفى نفس الوقت كان ابنه ميران شاه رغم جراحه يسير على رأس جيش آخر هو والأمير سيف الدين، حيث أغاروا على الأجزاء الغربية من إمبراطورية الهوردة الذهبية، فاستطاعوا أن يقتحموا منطقة أوكرانيا الحالية - منطقة قراسو - واستولى على عاصمتها شهر سراى؛ وواصل تقدمه حتى وصل إلى حدود بولندا، وقد عين على كل المناطق التى فتحها نائبا عن والده تيمور لنك، ثم اتجه إلى موسكو حيث قابل جيوش والده .

ومن هناك رحف الجيشان إلى سفوح جبال منطقة القوقاز، وأخذوا فى تطهيرها من أى وجود لقوات الهوردة الذهبية، وبعد ذلك اتجها إلى مدينة بركة سراى عاصمة إمبراطورية الهوردة الذهبية .

وكانت القوات المدافعة عنها هى بعض مفارز أمامية للجيش المصرى الذى كان فى تحالف مع توقتميش، ولم تستطع هذه المفرزة الصغيرة العدد أن تقف أمام جحافل جيش تيمور، فهربت تلك المفرزة من أرض المعركة، ومن ثم تمكن تيمور لنك من دخول المدينة، وكان أول عمل قام به هو طرد سكانها إلى الجبال، فماتوا من برودة الجو، وبعد ذلك قام بتعيين نائب له على بلاد الهوردة الذهبية، وعاد إلى أذربيجان، وكان ذلك فى عام ١٣٩٦م، بغرض استكمال حلمه المفقود فى ضم كل أراضى إيران والعراق والشام لسلطانه.

حاول بعد ذلك توقتميش أن يعود من جديد إلى مسرح الأحداث، لكن الأمور كانت قد تغيرت بصورة لم تمكنه من تحقيق حلمه، إذ ظهر على الساحة بعد مغادرة تيمور لنك للهوردة أحد أمراء ليتوانيا الذى بدأ فى فرض نفوذه وبسط هيمنته على الأمراء الروس، لذلك لجأ إليه توقتميش ليعينه بالمال والرجال لتجهيز جيش يحاول طرد نائب تيمور لنك من على عرش البلاد، لكن كالعادة تلقى توقتميش هزيمة من قتلج تيمور على ضفاف نهر ورسكلا، مما اضطره إلى الهرب إلى مدينة تيومن إحدى مدن سيبيريا، ثم وجد مقتولا بها بعد ذلك فى عام ١٤٠٦م.

كنوز وثروات الهند:

وصل تيمور لنك إلى سمرقند فى منتصف عام ١٣٩٦ بعد نجاحه فى القضاء على توقتميش وأعطى لجيوشه راحة مشروطة بالتناوب،وكان كل تفكيره هو كيفية مواجهة التحالف الذى وقف ضده ويتكون من آل عثمان فى الشمال ومصر فى الجنوب الغربى، خاصة أنه بالقضاء على الهوردة الذهبية قد اطمأن تماما إلى سلامة حدود أراضيه.

ورغم ذلك فإنه قرر أن يتجه إلى الهند ليبسط سيطرته عليها، رغم أنها لم تكن تشكل أى نوع من الأخطار عليه، نظرا لسيطرة قبيلة أو أسرة تغلق وهى إحدى الأسر المنحدرة من صلب جغطاى بن جنكيز، وقد كانوا على علاقات ود مع تيمور، بالإضافة إلى عدم محاولتهم إثارته نظرا لمعرفتهم بمدى قوته وقدرته.

لكن الشيء الذى لفت أنظاره إلى الهند كان ضعف قدرة هذه الأسرة على الإمساك الحازم للسلطة بها، ولذلك كثرت بشدة محاولات الثورة من الهنادكة،

وعلى الرغم من قدرة أبناء تـغلق على وأد تلك الثورات إلا أن كل أميـر منهم قد استقل بولايته بينما كانت الحكومة المركزية ذات شكل صورى نظرا للخلافات الحادة والعميـقة التى كانت بين أفرادها مـن الأمراء والتى كانت تظهر فى صـورة معارك دامية بين أنصار كل أمير منهم.

وكان هناك سـبب آخر دفع تيمـور إلى العمل على احـتلال الهند وهو تمتعـها بالثراء الشديد نـظرا لتنوع مناخها وجريان العديـد من الأنهار بأراضيها، كـما كان يرغب أيضا فى تدريب جنوده على خوض المعـارك فى الأراضى شديدة الحرارة، وذلك كنوع من أنواع التـدريب لهم استعـدادا لخوض مـعركتـه الكبرى لاحـتلال مصر.

لذلك حرك تيمور قوات من جيشه في ربيع ١٣٩٧ بقيادة حفيده محمد سلطان للعـمل على اجـتيـاح حـدود الهند والعـمل على احـتـلال بعض المدن والبلدان الحدودية خاصة مدينة ملتان، وقد نجح محمد سلطان فى تنفيذ رغبات جده .

وفى العـام التالى ١٣٩٨ كان تيمور قـد عبر بالقـوة الضاربة لجيشـه نهر السند، واستـمر فى سيره حـتى نهر راغى حيث التـقى مع القوات التابعـة له والتى يقودها حفيده محمد سلطان، حيث تقدم الجيش إلى مدينة فتح أباد فدخلها بسهولة، وكان قبلها قـد فتح مدينتى بهاتنير وسـرسطى، ومن ثم فقد أصبح على مـشارف مدينة دلهى حيث شرع أولا فى الـقيام بأعمال تطهـير لكل المفارز العسكرية التـابعة لخان الهند أو الأمراء التابعين له، ولذلك اتخذ من قرية كهيتال مركزا لتمركز قواته.

وعندما اطمـأن إلى إحكام سيطرته على المنـطقة بالكامل قام بعـبور نهـر جمنة والذى تقع دلهى العاصمة على ضفتـه الأخرى، وقد فاجأته أثناء العبور بعض من القوات المدافعة عن دلهى وكـانت عبارة عن مفرزة أمامية تعسكر فى حصن لونى شمال شرق دلهى، وكـانـت هذه المفرزة تتكون من أربعة آلاف فارس وألف جندى مشاة و٢٧ فيلا وقد استطاع تيمور أن يقضى على تلك القوة بالكامل.

بعد ذلك أمر قـواته بالوقوف على هيئة قوس يسيطر على دلهى من الشمال إلى الغرب، وكان هذا معناه أنه قد بدأ فى حصار دلهى بالإضافة إلى وضع جيوشه فى وضع الاستعداد الهجومى.

وبدأ هجومه الكبير لاقتحام دلهى، وقد كـانت جيوشه أكثر عـددا من الجيوش المدافعة عنـها والتى بلغت ٤٠ ألف فارس و١٠ آلاف جندى مـشاة و١٢٥ فـيلا، بينما كانت قوات تيمور تتألف من ١٢٠ ألف مقاتل ما بين فارس ومشاة.

وكان أكثر ما يقلق تـيمور قبل اقتحامه دلهى هو كتـائب الفيلة، لذلك عمد إلى استدراجـها إلى ميسـرة جيشه بعد أن نشـر كميات هائلة من القطع الحـديدية المدببة على الأرض ثم تظاهر فرسان ميسرته بالانسحـاب أمام هجوم الفيلة فاندفعت الفيلة إلى الأرض المزروعة بالأشواك الحـديدية فلم تستطع مواصلة السير، فـانقض عليها جنود تيمور وقضوا على كل جنود كتائبها.

وما أن تخلص تيمور من خطر كتائب الفيلة حـتى اندفع مهاجما القوات المدافعة عن دلهى، فاستطاع أن يقضى على أجنحتها، وأصاب قلبها بالكثير من الخسائر، مما دفع السلطان ووزيره وكبار قادة الجيش إلى الهـرب من أرض المعركة منسحبين إلى داخل المدينة، فطاردهم تـيمـور إلى أن دخل المدينة بقـواته، بينمـا هرب السلطان المغولى ووزراؤه من دلهى خوفا من الوقوع فى الأسر .

دخل تيمور إلى قصر الحكم بينما كان حفيداه محمد وحسين يمشطان المدينة من أى جنود مدافعة عنها، وبعد مضى أسبوع واحد من اندلاع القتال كانت الأمور قد استقـرت تماما فى دلهى، فقام بتـعيين نائب عنه لحكمها، وأمـضى بها بعض الوقت للراحة، ثم غادرها عـائدا إلى سمرقند بعد أن حقـق كل أهدافه من هذه الحملة، وكان أبرزها حصوله على غنائم وأسلاب لا تعد ولا تحصى وللدلالة على كثرة تلك الأسلاب سنجد أن معدل سير جيوش تيمور أثناء عودتها لسمرقند لم تكن تزيد عن ١٠كم فى اليوم الواحد، مع مراعاة أن مـعدله فى السير دون أسلاب هو ١٥٠كم/ اليوم، وقد وصل تيمور إلى سمرقند فى منتصف عام ١٣٩٩م.

تدريب عملى

أمضى تيمور لنك وقته فى الراحة بعد أن وصل إلى سمرقند بعد نجاحه فى دخول دلهى، وأخذ يفكر فى هذه الراحة فى كيفية التخلص من العبء الذى يتعرض له من آل عثمان ومن مماليك مصر، خاصة فى ظل الحلف القائم بينهما، خاصة وأن هاتين الدولتين كانتا تمثلان الخطر الكبير على كل أحلامه فى تكوين إمبراطوريته التى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيقها.

مع الوضع فى الاعتبار مدى قوة خصميه، إذ إن كلاً منهما فى حقيقته عبارة عن إمبراطورية عظمى تبسط نفوذها وهيمنتها على كل المناطق المحيطة بها، فإذا كان آل عثمان يبسطون نفوذهم على الأناضول وأرضروم وبعض بلاد الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تحتضر بفعل ضربات آل عثمان القوية لأطرافها لدرجة أن القسطنطينية كانت محاصرة بقوات آل عثمان، وأن إمبراطورها عمانويل كان يدفع الجزية السنوية للعثمانيين حتى لا يتوغلوا أكثر فى أراضيه .

ومن ناحية أخرى فإن مصر تبسط نفوذها على الجزيرة العربية والشام، وها هى قد كشرت عن أنيابها عندما تعرض لها - تيمور لنك - ودخل بغداد، فإذا هى- مصر - تعيد أميرها إلى عرشها مرة ثانية.

كما كان ما يؤرق فكر تيمور لنك أن كلاً من الدولة العثمانية ومصر تمتلك جيوشًا نظامية، وهذا عكس كل البلاد الأخرى التى قابلها والتى ما كانت تمتلك مثل تلك الجيوش النظامية .

ولذلك فإن خطر العثمانيين كان متجها من الحدود الشمالية والغربية لأراضى إمبراطورية تيمور، وخطر مصر يأتى من اتجاه الجنوب الغربى لأراضى إمبراطوريته.

لكن تيمور حسم أمره بضرورة أن تكون مواجهته مع العثمانيين أولا، وذلك حتى يؤمن كل حدود إمبراطوريته، ومن ناحية أخرى أنه بقدرته على إزاحتهم نحو الغرب إلى أوروبا - شرق أوروبا - يكون قد ضمن وقوع الشام بين يديه بسهولة، ومن ثم يكون قادرا على الزحف إلى مصر وخطوط إمدادات جيشه الخلفية مؤمنة تأمينا كاملا.

لذلك قرر أن يبدأ بإجراء تدريب عملي لقواته في المناطق الغربية من حدوده والمتاخمة لحدود الدولة العثمانية عن طريق اجتياحه لجورجيا، وذلك حتى يبث الرعب في قلوب العثمانيين، وفي نفس الوقت تزداد درجات الأمان لإمبراطوريته، بالإضافة إلى اعتباره الأراضي الجورجية مركزاً لتمركز قواته قبل انطلاقها للدخول إلى الأناضول في المواجهة الحاسمة مع العثمانيين.

تحرك تيمور بقواته من سمرقند إلى اتجاه الغرب للوصول إلى جورجيا، لكن قبل أن يصلها توقف بجيوشه على مدينة الري حيث قام بتأديب ابنه ميران شاه حاكم المدينة لعدم قيامه بالأعمال التي تليق بحاكم تجاه شعبه.

وقبل أن يغادر الري طلب أن تكون مدينة تبريز هي مقر التمركز الاستراتيجي لقواته لكونها تحتل موقعا جغرافيا يتوسط بلاد العثمانيين والروم والغرب، ثم أكمل سيره حتى وصل إلى وادي خمشا بجورجيا، وهذا الوادي يقع على مسيرة يوم من عاصمة البلاد تفليس، وببساطة وسهولة استطاع أن يقضي على كل القوات الجورجية التي قابلته، ولما لم يجد أي محاولة للصلح أو التسليم من جانب الملك الجورجي أمر تيمور قواته باقتحام تفليس، فدخلوها بنجاح، عندئذ عرض الملك الجورجي الصلح مع تيمور فقبل تيمور بعرض الملك وقام بتعيينه نائبا عنه على جورجيا، وأخذ يتحرك إلى وادي أرضروم ليواجه العثمانيين، وكان ذلك مع نهايات عام ١٣٩٩م وبدايات عام ١٤٠٠.

حرب جانبية

قبل أن يصل تيمور لنك بجيوشه إلى آسيا الصغرى منح حفيده رستم قيادة فرقة من جيشه المرابض فى شيراز، وأمره بالتقدم إلى بغداد، وكان غرضه من ذلك:

١ - التخلص من أحمد جلاير الذى عاد بمعونة مصرية إلى كرسى عرشه.

٢ - وجود قوات له فى بغداد، أى على حدود الشام، يعمل على شل حركة المماليك فى حال رغبتهم فى مساعدة العثمانيين.

٣ - إثبات مدى قوته للمماليك، ورغبته فى الثأر من هزيمته أمامهم، وبالتالى يحد من مساعدتهم للعثمانيين.

٤ - ضمان هدوء الجبهة الجنوبية لقواته أثناء اندفاعه إلى الأناضول.

وقد وصلت أخبار هذا الهجوم التيمورى على بغداد إلى أحمد جلاير، فأرسل قوة من جيشه لمقابلة التيموريين الذين وصلوا إلى بلدة مندلى بالقرب من بغداد، وقد فشلت قوات أحمد الجلايرى فى صد الهجوم التيمورى حيث استطاع رستم الزحف بجيوشه إلى بغداد .

لذلك هرب أحمد الجلايرى أمام هذا الهجوم حتى لا يقع أسيرا فى قبضة حفيد تيمور، واتجه إلى قره يوسف زعيم الغنمة السوداء وطلب منه المساعدة فى الدفاع عن بغداد مقابل الكثير من الأموال.

وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه قره يوسف فى تجهيز جيوشه للزحف إلى بغداد وصلت الأخبار التى تفيد أن تيمور قد وصل إلى سيواس وبدأ فى حصارها، وأنه أرسل جزءا من جيشه إلى حدود الشام.

أمام هذا الخبر المرعب لهما قررا اللجوء إلى حلب، خاصة وأنه فى نفس هذا

التوقيت كانت الأخبار تؤكد قيام رستم بفرض حصاره حول بغداد، لكنه لم يستطع أن يدخلها لورود أخبار إليه تفيد حدوث ثورة فى شيراز ضد الجد تيمور لنك، فاضطر إلى رفع حصاره عنها وأسرع متجها إلى شيراز .

وعلى الناحية الأخرى استطاع تيمور لنك فرض سيطرته على سيواس بموقعها الاستراتيجى الفريد، ومن ثم يكون قد امتلك مفتاح كل أراضى آسيا الصغرى، ولم تستطع القوات العثمانية المكلفة بالدفاع عنها الصمود أمام موجات الهجوم المتتالى لجيوش تيمور لنك عليها، فتراجعوا، مما منح قوات تيمور الفرصة فى هدم أسوار المدينة ودخلها، لكنه لم يركن إلى الراحة بها، بل استمر فى توغله فى أراضى الأناضول، ثم اتجه جنوبا فجأة ليصل إلى مدينة ملاطيه الاستراتيجية باعتبارها البوابة الجنوبية للأناضول، واستطاع أن يدخلها فى نفس يوم وصوله إليها، وبدلا من أن يعود ليتوغل شمالا فى أراضى الأناضول التى أصبحت لقمة سائغة تنتظر من يمد يده ليحملها، إلا أنه فاجأ الجميع وقرر الراحة فى ملاطيا، حيث قرر أن يتجه بقواته إلى سوريا، وذلك لعدة أسباب:

١ - أنه أرسل رسالة قوية إلى العثمانيين توضح قدرته العسكرية بعدما استطاع أن يحتل سيواس وملاطيا.

٢ - احتلاله سيواس وملاطيا معناه سيطرته على الموقف على الحدود مع الدولة العثمانية .

٣ - تأمين حدوده مع الدولة العثمانية معناه قدرته على الحركة بحرية وسهولة فى الشام، وبالتالى يستطيع أن يلقن حكام مصر درسا طالما حلم به.

٤ - رغبته فى دخول بغداد بعد أن كاد حفيده أن يدخلها لولا الثورة التى نشبت فى شيراز .

٥ - رغبته فى أن يكون دخوله إلى الأناضول دخولاً مزدوجًا بمعنى التخلص من العثمانيين ثم مواصلة السير إلى القسطنطينية التى كان يعتبرها جزءًا من أراضى إمبراطورية جده جنكيز خان، وبالتالى فإن هذا الهدف لن يتحقق إلا بالسيطرة على الشام لتكون خطوط إمداداته القادمة من الجنود من إيران إلى الأناضول فى أمان تام أثناء عبورها أراضى الشام.

٦ - أنه فى نفس الوقت نجده قد أرسل بخطاب إلى السلطان العثمانى بايزيد يخبره فيه أنه ليس فى نيته أو تفكيره أن يواجهه على الأرض فى معركة، إذ إنه يرغب فى أن تتجه فتوحات وتوسعات الدولة العثمانية إلى الغرب أى إلى أراضى أوروبا.

لكن كان كل ما يطلبه أن يترك له السلطان بايزيد مدن سيواس ، ملاطيا ، ابلستن وكماخ، وهى المدن التى تقع شرق الأناضول ومتاخمة لحدود الإمبراطورية التيمورية، وكان بايزيد قد ضمها إلى أملاك الدولة العثمانية فى فترة سابقة قصيرة.

ملحوظة هامة

كان تيمور من الذكاء بأن لا يستكمل سيره إلى آسيا الصغرى، إذ إن حلمه الكبير أن يقضى على الدولة العثمانية، وأيضا بسط نفوذه على الإمبراطورية البيزنطية باعتبارها من أملاك جده جنكيز خان.

ولما كان السلطان بايزيد فى نفس الوقت الذى احتل فيه تيمور سيواس والمدن الأخرى كان محكما حصاره حول القسطنطينية، لذلك لم يحاول تيمور أن يدفع بايزيد لفك حصاره عن المدينة كى يواجهه، بل كان يريد أن ينجح بايزيد فى دخوله

المدينة حتى يعاجله هو بالهجوم بعد الإنهاك الذى تعرض له جيشه من طول حصار القسطنطينية، ومن ثم يكون انتصاره على بايزيد فى حقيقة الأمر انتصاراً مزدوجًا إذ بهذا الانتصار يكون قد تخلص من الدولة العثمانية وبسط سلطانه عليها، وأيضا بسط نفوذه على الإمبراطورية البيزنطية باعتبار أنها من أملاك الدولة العثمانية.

وطبقا لهذه الرؤية فإنه كان عليه أن يبسط نفوذه على الشام كما سبق التوضيح لضمان وصول الإمدادات إلى جيشه الذى سيواجه قوات محترفة وشرسة فى نفس الوقت عندما يقرر إنهاء سلطة العثمانيين فى آسيا الصغرى وأوروبا .

وعلى ذلك فإن توقيت انتزاع الشام من مصر هو التوقيت الأفضل لتيمور نظرا لانشغال بايزيد فى حصار القسطنطينية، بالإضافة إلى ظهور بوادر للخلاف بين مصر والدولة العثمانية، نظرا لقيام الدولة العثمانية بفرض سيطرتها على ملاطيا التابعة للشام التابع لمصر.

مواجهة مصر على أرض الشام

كان من حسن حظ تيمور لنك أن السلطان برقوق الحاكم القوى على مصر والشام قد توفى، وتولى العرش خلفا له ابنه الصغير ذو العشر سنوات السلطان فرج، لذلك كانت الساحة السياسية والعسكرية فى مصر مشغولة تماما بأمر الاستحواذ على السلطة بعد إزاحة هذا الطفل من على العرش.

لذلك اكتفت القاهرة بقراءة التقارير التى كانت عيونها فى العراق والشام ترسلها إليها، وكذلك الرسائل التى كان نائب بغداد ونائب الشام يرسلونها عن التحركات العسكرية لتيمور فى منطقة الشام، وأيضا نتائج حملاته العسكرية فى الأناضول وإيران.

وهكذا وجد تيمور أن كل الظروف مواتية له للحركة العسكرية بحرية فى الشام نتيجة انشغال السلطان العثمانى بايزيد فى حصاره للقسطنطينية على أمل وقوعها بين يديه، وبذلك يكون قد هدم أركان الإمبراطورية البيزنطية، ونفس الحال فى مصر، نظرا لانشغال كبار رجالها فى صراعهم الداخلى على السلطة بعد وفاة السلطان برقوق.

بالإضافة إلى كل تلك الظروف فإن تيمور بما كان يمتلكه من خبرة وحنكة فإنه كان قد نشر شبكة هائلة ومتشعبة من الجواسيس فى كل من الشام ومصر كانت تمده بأدق تفاصيل الأسرار والأحداث التى تحدث، ولذلك زاد أمله فى اجتياح الشام حتى يتسنى له التفرغ لحربه ومعركته الكبرى لدخول مصر، لأنه كان يأمل أن تضرب النقود باسمه، وأن يخطب له العلماء من فوق منابر المساجد باعتباره خليفة للمسلمين، لكون القاهرة هى مقر إقامة الخليفة العباسى منذ أن دمر جده هولاكو بغداد.

أما الأحوال بالتفصيل فى القاهرة فكانت سيئة وتتجه إلى الأسوأ منذ وفاة السلطان برقوق، حيث إن السلطان الطفل فرج بن برقوق لم يكن فى حقيقة الأمر يملك سواء من أمره الشخصى أو أمر المملكة المصرية المترامية الأطراف أى شىء، إذ كان مسيرا من قبل من حوله من الأمراء الأقوياء، والذى كان كل منهم يتحين الفرصة للقفز على العرش ومن ثم يصبح الرجل القوى فى كل المنطقة.

وما زاد الأمر سوءا هو قيام ثورة وعصيان على سلطة السلطان الطفل فى القاهرة، وذلك عندما قام نائب الشام واسمه تنم بثورة تحالف معه فيها ضد السلطان الصغير كل من نواب طرابلس وحماة وحلب، وعلى الرغم من خروج الجيش المصرى إلى الشام تحت قيادة السلطان الصغير وقدرته على قمع الثورة إلا أن الأمور كانت قد تعقدت باجتياح بايزيد لمدينة ملاطيا وهى تحت النفوذ المصرى. ورغم ذلك لم تتحرك مصر لاستعادتها نظرا لحالة الصراع الداخلى على السلطة.

الدخول إلى حلب

بعد أن اطمأن تيمور إلى أن الأحوال الدولية بشكل عام مواتية لانقضاضه على الشام بدأ فى توجيه الرسائل إلى قضاة الشام وكبار العلماء يخبرهم فيها أنه لا يريد الاستيلاء على الشام، حيث إن هدفه الرئيسى هو الوصول لمصر ليضرب بها السكة -العملة - ويذكر اسمه فى خطبة الجمعة.

وأمام هذه النيات الصريحة من تيمور أصدر السلطان الطفل فرج بن برقوق أمرا إلى نائب دمشق الأمير سودون بالعمل على تجهيز القوات الموجودة بالشام للحركة إلى حلب للدفاع عنها أمام هجوم تيمور المتوقع عليها.

لذلك تحرك الأمير سودون بالقوات ووصل بها إلى حلب فى نفس توقيت وصول القوات المصرية القادمة من حماة وطرابلس وبعلبك وصفد وغزة.

وبينما كان جيش تيمور يتقدم إليها قادما من ملاطيا وجيوش مصر تنتظره فى حلب، وقد قدر المؤرخون المعاصرون لتلك المعارك جيش تيمور بحوالى ٨٠٠ ألف جندى ما بين فارس ومشاة، وذلك حسب ذكر قاضى حلب ابن الشحنة، بينما يذكر ابن خلدون أن جيش تيمور قد وصل عدده إلى حوالى مليون فرد.

وهذا القول فى رأيى مبالغ فيه جدا لعدة أسباب

١ - إجمالى عدد أفراد الجيش الذى كان يخرج به تيمور غالبا فى كل معاركه والتى كانت بكل المقاييس أكثر أهمية من تلك المعركة - الهوردة الذهبية ، إيران، جورجيا ، الجغطائيين . .إلخ، لم تزد بأى حال من الأحوال عن ١٢٠ ألف جندى

ما بين مشاة وفرسان.

٢ - معرفة وإدراك تيمور من خلال تقارير جواسيسه بأن الحالة فى مصر غير مستقرة، وأن هناك حالة من الصراع الخفى الساخن على السلطة بها بعد موت السلطان برقوق.

٣ - تأكده من هذه الحالة بعد استيلاء بايزيد على ملاطيا وعدم قيام مصر بأى تحرك إيجابى لاسترجاع تلك المدينة لتبقى كما كانت تحت سلطانها.

٤ - الحالة فى الشام كانت مزرية بالتبعية نظرا للمحاولات الانفصالية التى قام بها العديد من ولاة المدن على القيادة فى مصر مستغلين فى ذلك وفاة السلطان برقوق.

٥ - الهدف الأساسى لتيمور من احتلاله الشام هو الحصول على الأسلاب والغنائم التى تعينه على استكمال هدفه بالوصول إلى القاهرة، ومن ناحية أخرى تمكنه هذه الأموال من زحفه بحرية فى الأناضول لإزاحة الدولة العثمانية من طريقه.

٦ - أن تيمور فى حركته بالشام كان حذرا من أى تحرك مفاجئ يمكن أن يقوم به السلطان العثمانى بايزيد، ونجد أثر لهذا الحذر قبل أن يبدأ تيمور تحركاته الفعلية سواء باتجاه الأناضول أو الشام، وذلك من خلال قراره أن تكون شيراز هى مكان التجمع الاستراتيجى لقواته ومن ثم فإنه لن يغامر بخروج هذا العدد الكبير - إن صح - من قواته لدخول الشام، وبالتالى يكون ظهره مكشوفا فى حال قيام بايزيد بأى عمل عسكرى مفاجئ له.

٧ - إن تيمور كان يسير بهدوء فى طريقه إلى حلب، وهى عكس طريقته التى اعتادها فى كل الحروب السابقة على ذلك وأيضا اللاحقة بعد ذلك، كما أنه أرسل برسول عنه إلى تيمور طامش يطالبه فيه بالاستسلام حقنا للدماء.

لكن كان رأى أغلبية أصحاب الرأى والقرار فى حلب أن عليهم أن يهاجموا قوات تيمور، وكان مبررهم لذلك أنه بطىء فى سيره للوصول إلى حلب، وبذلك اعتقدوا أنه يجهل خطوط الحركة فى البلاد، وقرروا أن يهاجموه،وكان أول عمل عدائى وجهوه له هو قتلهم لرسوله، مما دفعه إلى اختيار حل دخول المدينة بالقوة.

وهذا هو ما تحقق بالفعل عندما بدأ الاشتباك الفعلى بين قوات الطرفين،حيث لم تستطع المدينة أن تقاوم أكثر من ساعة بعدها انهارت كل قوى المدافعين عنها مما سمح لقوات تيمور بالاندفاع إليها.

إلى دمشق

لم يمكث تيمور لنك فى حلب، إذ بمجرد أن دخلها بدأ فى الحركة بعد يوم متجها إلى دمشق .

وفى نفس التوقيت كانت الإشاعات تملأ دمشق عن قرب وصول السلطان فرج بن برقوق إليها على رأس القوة الضاربة للجيش المصرى.

لذلك قام القادة العسكريون للمدينة باتخاذ كل الإجراءات التى تؤدى إلى نجاح عملية الدفاع عن المدينة، بينما كان القادة الإداريون لها مقتنعين بأنهم لن يقدروا على الصمود فى وجه تيمور، وبالتالى فإن الأفضل لكل الأطراف أن يتم الاستسلام له .

وقد وصل الجيش المصرى بقيادة السلطان فرج بن برقوق إلى دمشق تقريبا فى نفس توقيت وصول الجيش التيمورى، وقد عسكر فرج برقوق بجيشه حول المدينة بشكل أرغم تيمور على الوقوف بجيشه خارجها، وحاول كثيرا من خلال مفارزه

الأمامية اكتشاف أى طريق يمكن أن يصل به إلى دمشق لكنْ لم يجد أى ثغرة يمكن أن ينفذ منها.

ورغم ذلك فقد حدثت عدة مواجهات بين الجيشين أبرزها ما حدث فى موقعة مرج النجوم عندما اشتبكت مفرزتان من الجيش التيمورى والجيش المصرى، وكان يقود مفرزة الجيش التيمورى تيمور نفسه، وعلى الرغم من نجاحه فى دفع ميسرة مفرزة القوات المصرية على التراجع إلا أنه لم يستطع أن يخترق قلبها كعادته فى كل حروبه السابقة، وهكذا رجعت كل قوة إلى معسكرها دون تحقيق انتصار حاسم.

وحدث اشتباك ثان بين القوات فى منطقة تلة الكسوة، وفى هذا الاشتباك نجحت القوات المصرية فى إيقاع حفيد تيمور السلطان حسين فى الأسر ، وفى اليوم التالى تم استئناف القتال، وبينما كان القتال دائرا أرسل تيمور رسله إلى برقوق الصغير يخبره برغبته فى وقف القتال، وأنه لن يمكث فى سوريا أو دمشق مقابل أن يسمح له برقوق بضرب العملة باسمه، وانتهت المعارك مع حلول المساء.

وبالتالى ذهب السلطان فرج بن برقوق إلى قلعة دمشق للراحة، وهناك ترامت إلى آذانه أخبار مؤامرة متكاملة الأطراف والأضلاع للقفز على كرسى العرش فى مصر من قبل بعض الأمراء المناوئين له، فما كان من الأمراء الموالين له إلا أن نصحوه بضرورة أن يغادر دمشق ليصل إلى القاهرة قبل أن يصل إليها المتآمرون.

لذلك أسرع الخطى هو والأمراء الموالون له وعدد كبير من فرسان ومشاة الجيش فى طريقهم إلى القاهرة، حيث استطاعوا أن يلحقوا بالمتآمرين بالقرب من ساحل غزة واستطاعوا أن يقضوا عليهم.

الحيرة ثم الاستسلام

عندما استيقظ سكان دمشق من نومهم علموا بأخبار ترك السلطان فرج أرض المعركة لوأد مؤامرة اقتلاعه من على عرش مصر، ونفس هذه المعلومة تردد صداها فى معسكر تيمور، فظن فى البداية أنها مكيدة، وأثناء محاولته ترتيب أوراقه للوصول إلى قرار دخل عليه وفد من كبار رجال دمشق يترأسهم القاضى ابن مفلح ويرافقه ابن خلدون وهم يحملون الهدايا لتيمور، حيث أعلنوا له استسلام المدينة فدخلها، بينما استمرت قلعتها الحربية ترفض الاستسلام وظلت تقاوم قوات تيمور لمدة اختلف فيها المؤرخون، فمنهم من قال أنها استمرت فى المقاومة لمدة شهر، وفى قول آخر ٤٠ يومًا وفى قول أخير ٤٣ يومًا.

المهم أن أول شىء طلبه تيمور بعد دخوله دمشق هو الحصول على كل الأموال والأسلحة التى تركها السلطان برقوق قبل رحيله إلى القاهرة، وكان ذلك فى عام ١٤٠١م.

مغادرة دمشق ثم حرقها

بعد أن دخل تيمور إلى دمشق وحصوله على كل الأموال والأسلحة التى تركها فرج بن برقوق أصدر نصا لأمان أهل دمشق كان ينص على التالى:

«يعلم سكان دمشق أن الله تعالى ملكنا بلاد الشام بفضله العميم علما منه بما فى قلوبنا من الرحمة للرعية ...ليعلم الأشراف والشيوخ والتجار والعوام أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وحريمهم وأنه لن يظلم فرد فى دمشق، وأنه لن يتعرض إلى مساجدها».

ولم يمض وقت طويل حتى استقرت الأمور كما يريد ويرغب، لذلك عين نائبا له على دمشق ومفرزة من مفارز جيشه ثم غادرها إلى العراق، وبمجرد أن اختفت قوات تيمور عن أعين الدمشقيين حتى هبوا فى ثورة عارمة أسقطت نائب تيمور من على عرشه كما ألحقت أضرارا كثيرة بمفرزته العسكرية.

عندما وصلت تلك الأخبار إلى تيمور عاد مرة أخرى إلى دمشق حيث دخلها بكل قواته الضاربة، وأشبع أهلها ضربا وقتلا وأشعل النار فى بيوتها، ثم غادرها بعد ذلك بثلاثة أيام متجها إلى العراق.

إلى بغداد

ها هو تيمور قد تخلص من أى خطورة يمكن أن تقع على جيشه من الشام، وبالتالى لم يكن أمامه سوى العمل على بسط نفوذه على بغداد ليشعر بلذة الانتصار الكبير الذى يدفعه لخوض المواجهة المرتقبة مع العثمانيين، وأجناب ومؤخرة جيشه فى أمان تام من أى خطر يمكن أن يلحقها من الجيش المصرى.

كان تيمور قبل أن يتحرك من دمشق قد أرسل إلى حفيده رستم بضرورة التحرك على رأس فرقتين، وأن يجدّ فى السير إلى بغداد حيث كان يأمل أن يقوم حفيده بفتحها قبل أن يصلها هو بجيوشه.

ويرجع تفكيره فى ذلك إلى أن الأمير أحمد بن عويس الجلائرى قبل أن يهرب من بغداد قد عين نائبا له ليحكمها طوال فترة غيابه، وأوصاه بصراحة بأن عليه أن يستسلم فى حال وصول تيمور بنفسه قائدا لجيوشه التى تدخل بغداد.

وقد علم تيمور بهذا الأمر من خلال جواسيسه الذين كانوا ينتشرون فى بغداد، ومن ثم فإنه كان يأمل أن يتم فتح بغداد دون عناء لكن هذه الأمانى ذهبت أدراج

الرياح نظرا لأن الأمير فرج الذى ولاه الأمير أحمد بن عويس عرش بغداد قرر أن يقاوم الجيش التيمورى حتى ولو كان على رأسه تيمور، وكان مبرر فرج لذلك عدة أشياء :

١ - خوفه من مخادعة تيمور ونكوثه عن عهوده.

٢ - رغبة فرج فى أن ينجح فى صد هجوم تيمور، ومن ثم يكون الحاكم المتوج القوى لبغداد وبالتالى للشام .

٣ - عندما أرسل للأمراء فى المدن من حوله يطلب منهم معاونته وجد أنهم قد لبوا نداءه إذ أرسل له أمراء مندلى وبعقوبة والحلة بخيرة فرسانهم وجنودهم.

٤ - أنه راهن على أن الحر فى العراق لا يطاق، وبالتالى فإن فرصة انتصاره على الجيش التيمورى قائمة وبقوة.

ولهذه الأسباب فإنه قرر أن يدافع عنها لذلك اطمأن على سلامة أسوار المدينة وكذلك سلامة حصونها، وأخذ يطلب من علماء الدين تحفيز أفراد الشعب للوقوف فى وجه الجيوش الغازية، وقد وجد استجابة رائعة من أفراد الشعب والجيش.

وصلت جيوش رستم حفيد تيمور إلى بغداد أولا، فتحرك لها فرج بقواته خارج أسوار المدينة على أمل أن يشتت شملها، لكن مع بدء الاشتباكات فإن قواته لم تستطع أن تصمد أمام قوات رستم بن تيمور، لذلك ما كان من فرج إلا أن أمر قواته بالتقهقر ودخول المدينة والعمل على الدفاع عنها من خلف أسوارها الحصينة.

وأرسل رستم بن تيمور برسالة إلى جده يخبره فيها بما استجد على أرض الواقع، ويطلب منه المشورة أو الإسراع فى الوصول إليه.

كان وقع هذه الرسالة سيئا على تيمور الذى كان يرغب فى عدم الدخول فى مواجهة مع أهل بغداد لعدة أسباب:

١ - أن جيوشه منذ سنتين لم تحصل على أى قسط من الراحة.

٢ - الحر بدأ يؤثر بشكل أو بآخر على قدرات جنوده.

٣ - أنه طبقا لما هو مخطط له فإنه يجب أن يكون هو وقواته فى تبريز استعدادا للانطلاق إلى الأناضول من أجل كسر شوكة العثمانيين نظرا لرغبته فى أن يقوم بمباغتتهم قبل أن يباغتوه بالهجوم .

ورغم كل تلك الأسباب التى كان رستم يعرفها وكان ميالا إلى الانسحاب من بغداد، ولذلك أرسل إلى جده يطلب منه القرار النهائى، فإن تيمور قرر أن يحاصر بغداد، وأرسل إلى حفيده يخبره بأنه قادم وبأقصى سرعة.

والسبب الرئيسى الذى دفع تيمور إلى استكمال حصاره لبغداد ودخولها بالقوة هو أن نهر دجلة هو نقطة التجمع الاستراتيجى لأى قوات يمكن أن تصل من مصر بغرض مهاجمة قواته، ومن ثم فإنه وجد أنه من الضرورى أن يبسط نفوذه ليس على النهر فقط، وإنما على بغداد أيضا.

لذلك أرسل مندوبا عنه إلى تبريز حاملا رسالة إلى ابنه شاه روخ يأمره فيها بضرورة أن يغادر تبريز على رأس جيش يتكون من ١٠ فرق من الفرسان والجنود، بالإضافة إلى فرق المهندسين العسكريين بما تضمه من معدات وأدوات الحصار، وأن عليه أن ينفذ الأمر فور وصوله إليه .

وفى نفس التوقيت أرسل خطابا إلى حفيده السلطان محمد الذى كان قائدا للقوات المكلفة بالدفاع عن العاصمة سمرقند بضرورة أن يتحرك منها على رأس أغلب القوات الموجودة تحت قيادته إلى الغرب للوصول إلى تبريز لمراقبة تحركات العثمانيين .

وهكذا استطاع تيمور بذكاء عسكرى حاد وبرؤية استراتيجية متكاملة للأحداث أن يرتب أوضاعه بسهولة ويسر طبقا للمستجدات التى حدثت على أرض الواقع.

حصار بغداد

وصل شاه روخ بن تيمور بقواته إلى بغداد وبدأ فى حصار المدينة، وبعد يومين وصل تيمور على رأس جيشه، ولما علم أن الأمير فرج مُصِرّ على المضى قدما فى طريق المقاومة أمر تيمور قواته أن تقوم بعمل طابور استعراضى بكامل قوات الفرسان والمشاة مع دق الطبول والموسيقى مع كتائب الأعلام.

وقد بلغت إجمالى عدد القوات المشتركة فى طابور الاستعراض حوالى ١٢٠ ألف فارس وجندى مشاة.

وكان تيمور يهدف من وراء استعراضه لقوة ومهارات جيشه إلى بث الرعب والخوف فى قلوب المدافعين عن المدينة، لكن لما لم يجد أية تأثيرات على المدافعين أمر قواته بإلقاء القوارب فى نهر دجلة وأن يعبر عليها جنوده إلى الشاطئ الآخر للنهر، وأمر بوضع آلات ومعدات الحصار فى وضع الاستعداد للهجوم، وبدأ فى تحريك قواته المشاة لتقترب أكثر من أسوار المدينة المحاصرة، وأخذ هؤلاء الجنود ينصبون الأبراج أمام الأسوار، وبعد أن أتم هذه الإجراءات انتظر يوما لعل فرج يعلن استسلام المدينة دون قتال، لكن أمله لم يتحقق.

فما كان منه إلا أن أمر رجاله بتجهيز كتائب من المشاة مهمتها العمل على ثقب أسوار المدينة، وقد نجحت هذه الكتائب فى مهمتها، لكنها وجدت أن المدافعين عن بغداد قد بنوا خلف الأسوار الخارجية أسوارا أخرى خلفها وكان هذا يعنى عدم جدوى الفتحات التى تم ثقبها فى الأسوار.

قرر تيمور عدم المبادرة بالهجوم عن طريق المجانيق وكرات اللهب والرماح والسهام النارية رغم معارضة أغلب قادته العسكريين لقراره نظرا لتأثير الحر الشديد عليهم وخوفهم من أن تؤثر الحرارة بالسلب على الجنود.

وكان غرض تيمور من عدم المبادرة بالهجوم هو رغبته فى عدم استهلاك قوة جنوده، إذ كان يأمل أن يجد ثغرة فى السور تمكنه من الدخول بأقل مجهود أو أن يعلن فرج استسلام المدينة.

بعد مضى أسبوع من إلحاح قادة تيمور له بالهجوم على أسوار المدينة منحته الأقدار مكافأة على صبره، إذ تخاذل المدافعون عن أحد أبراج المدينة وهو برج العجمى، فاستغل تيمور هذه الفرصة فأمر جنود بتسلق الأبراج المواجهة لبرج العجمى ونزل جنود تيمور إلى أرض البرج من الداخل حيث استطاعوا أن يفتحوا بوابته.

فى تلك اللحظة أمر تيمور جنوده بالدخول عبر تلك البوابة فاندفعوا داخلين فى موجات متتالية إلى داخل المدينة، ولم تمض أكثر من ساعتين حتى كان جنود تيمور مسيطرين على أكثر من ربع مساحة المدينة وقبل حلول المغرب كان جنوده قد دخلوا المدينة وبسطوا سيطرتهم عليها بالكامل.

وقد حاول المدافعون عن المدينة الاشتباك مع القوات الغازية لكنهم لم يستطيعوا الصمود، وقتل منهم الكثير لدرجة أن الدماء التى انسابت من هؤلاء المدافعين فى نهر دجلة وفى شوارع وطرقات المدينة أدت إلى عفونة هوائها مما حدا بتيمور إلى الانسحاب خارجها بحوالى ستة كيلو مترات حتى لا يتعرض جنوده للأمراض والأوبئة.

ولما تم تنظيف المدينة عاد إليها مرة أخرى وأخذ يجمع الغنائم والأسلاب، وعين نائبا عنه على المدينة، وكان ذلك فى أواخر عام ١٤٠١م.

وبعد ذلك غادر تيمور بغداد بعد أن ترك خلفه مفرزة عسكرية لضمان أمنها، واتجه مسرعا إلى الشمال إلى جورجيا فى وادى قرا باغ حيث قرر تمضية بعض الوقت للراحة هو وجنوده، وفى نفس الوقت منتظرا وصول حفيده سلطان محمد على رأس بعض الفرق العسكرية، وذلك استعدادا للمواجهة الكبرى مع العثمانيين فى عقر دارهم فى الأناضول.

إلى الأناضول

أخيرا استطاع الفاتح العجوز تيمور لنك بسط نفوذه وسلطانه على الأماكن التى كان يعتقد أنها مكامن الخطر الحقيقية التى يمكن أن تواجهه أثناء زحفه نحو الأناضول لمواجهة العثمانيين، وكان يمنى نفسه بقدرته على سقوط ملكهم ووراثة بلادهم.

وها هو الآن يجلس فى قرا باغ يستجم من عناء السفر وكثرة المعارك التى خاضها، وفى نفس الوقت يتلقى تقارير جواسيسه المنتشرين على طول خط الحدود المشترك بينه وبين العثمانيين، وأيضا جواسيسه الموجودين داخل الدولة العثمانية.

وما كان يطمئنه أن السلطان القوى لمصر برقوق قد مات، وخلفه ابنه الصغير والذى كان ألعوبة فى أيدى من حوله، بالإضافة إلى توتر العلاقات التى شابت تصرفات الحليفين الكبيرين بعد استيلاء بايزيد العثمانى على ملاطيا والواقعة ضمن الأملاك المصرية فى الشام، وما حدث من موقف سلبى لمصر بعد قدرته - تيمور- على احتلال دمشق وبغداد، ومن ثم فإنه تأكد من عدم وصول أى دعم حقيقى من مصر لسلطان العثمانيين حتى لو طلب بايزيد ذلك بعد نشوب المعارك بينه وبين الجيش التيمورى نظرا لوجود خطوط المواصلات تحت سيطرة أمراء تيمور .

وبذلك لم يعد باقيا أمام تيمور إلا اختيار اللحظة المناسبة للانقضاض على الدولة العثمانية والعمل على إسقاطها ووراثتها.

انشغال بايزيد

وعلى الجهبة المقابلة فإن بايزيد العثمانى منذ أن اعتلى عرش الدولة العثمانية وشغله الشاغل هو العمل على اقتحام القسطنطينية، نظرا لأن واقع الحال كان يؤكد أنه السيد الحقيقى على بيزنطة حيث كان قضاة العثمانيين يتصدرون قاعات محاكم

القسطنطينية، وكان المؤذنون العثمانيون يؤذنون للصلوات الخمس فى مساجد القسطنطينية، وإمبراطور بيزنطة كان يدفع له الجزية سنويا عن طيب خاطر، ويتمنى ألا يتعرض لهجوم عسكرى عثمانى، كما كانت جمهورية البندقية ومدينة جنوة يلبون كل طلبات السلطان العثمانى باعتباره الحاكم القادم على الإمبراطورية البيزنطية وسيد آسيا الصغرى.

وفى الوقت الذى كاد فيه السلطان بايزيد يتمكن من دخول القسطنطينية وفتحها بالقوة بعد طول حصار محكم ضربه حولها فإن الصليبيين قرروا أن يدافعوا عن معقل الأرثوذكسية فى أوروبا بغرض أن يضموها لكنيستهم الكاثوليكية بعد ذلك.

وكان لاشتباكه مع قوات هذه الحملة الصليبية التى كان عدد أفراد جيشها يزيد عن مائة ألف جندى أثر كبير فى إنهاك قواته، وعلى الرغم من قدرة بايزيد على تشتيت الجيوش الصليبية وإلحاق هزيمة ثقيلة بهم إلا أنه خسر التالى:

١ - خسر قدرته على دخول القسطنطينية التى حاصرها حصارا قويا وطويلا.

٢ - إنهاك جيشه فى معركة لم يكن مستعدا لها مع الصليبيين .

٣ - زيادة إنهاك قوى أفراد جيشه نظرا لمرابطتهم طويلا على جبهة القتال من أجل حصار القسطنطينية، وبعد ذلك فى مواجهة الجيش الصليبى.

لكنه فى نفس الوقت كسب التالى:

١ - إثبات قدرته كحاكم قوى ليس فقط على الأناضول، بل على أرضروم وما جاورها نتيجة حصاره القاسى على القسطنطينية .

٢ - ارتفاع الروح المعنوية لجنوده نتيجة انتصارهم الرائع على حملة كل صليبيى أوربا.

٣ - التخلص من أخطار الصليبيين فى أوروبا - وهو ما استفاده منه حفيده السلطان محمد الفاتح الذى استطاع دك أسوار القسطنطينية ودخلها عنوة.

التحرك إلى أرض المعركة

كان بايزيد قد تخلص من الصليبيين فى أواخر عام١٤٠١، وكذلك فك حصاره عن القسطنطينية لما وصلته أخبار تحرك لتيمور لنك على رأس قواته متجهاً إلى الأناضول .

وقد توقع بايزيد أن تكون معركته الكبرى المرتقبة مع تيمور لنك فى مناطق ما حول أنقرة لكونها المنطقة الوحيدة التى لها طريق يصلها بمنطقة سيواس التى يعسكر بها تيمور بعد قدومه من جورجيا.

وبمجرد أن وصلت إلى بايزيد أخبار مؤكدة عن بدء تيمور فى تجميع قواته فى سيواس فإن بايزيد قرر أن يعبر بقواته نهر هاليس فى منطقة أنقرة ليكون على الجانب الجنوب الشرقى للنهر، ومن ثم يكون نشر قواته فى وادى هضبة الأناضول المتاخمة لنهر هاليس وهى تبعد بحوالى ١٠٠كم عن منطقة سيواس التى يعسكر فيها تيمور وقواته .

انتظر بايزيد على رأس قواته التى وضعها فى تشكيلات دفاعية على أن تتحول إلى الأوضاع الهجومية بمجرد ظهور القوات التيمورية، لكن انتظار بايزيد زاد إلى ثلاثة أيام ثم أسبوع، ولم يظهر أى أثر لتيمور، مما دفع بايزيد إلى إرسال العديد من السرايا الجوالة لمعرفة مكان جيوش تيمور، خاصة بعد أن وصلته رسائل من جواسيسه تخبره ببدء جيوش تيمور، فى التحرك من سيواس باتجاه أنقرة، ولما كانت المسافة بين سيواس وأنقرة مائة كيلو متراً فهذا معناه أنها على مسيرة وعلى أكثر تقدير يومين.

المهم فى الأمر أن تلك السرايا الجوالة التى أرسلها بايزيد للتعرف على مزيد من المعلومات عن أماكن تحرك الجيش التيمورى وصلته أخبارها التى زادت من حزنه، إذ أوضحت له أن سيواس بها بعض المفارز البسيطة من الجيش التيمورى أما قوام الجيش الرئيسى فلا أثر له كما لو كانت الأرض قد انشقت وبلعته فى جوفها.

ذكاء تيمور

كانت الأخبار النهائية المؤكدة قد وصلت إلى تيمور تؤكد له تمركز جيوش بايزيد على الضفة الجنوبية الشرقية لنهر هاليس الذى يصب فى مياه البحر الأسود، ولما كان تيمور يرغب فى أن تكون المعركة الفاصلة بينه وبين بايزيد فى جوف الأراضى العثمانية حتى يتحقق لجيشه الدافع النفسى من أثر التوغل العميق فى أراضى العثمانيين ،لذلك فإنه فكر فى فكرة عبقرية وبسيطة، إذ قرر أن يخرج بقواته من سيواس لكن لن يتجه بها شمالا كما توقع خصمه، بل سار بها باتجاه الغرب إلى أن وصل إلى آخر نقاط نهر هاليس قبل أن تصب فى البحر الأسود، وعبر النهر وسار على ضفته الشمالية الغربية ،وبذلك يكون فى خط مواز للقوات العثمانية، وفى نفس الوقت بعيدا عنها، وهذا الوضع يحقق له القدرة على التوغل فى أكبر مساحة ممكنة من أراضيهم.

كما كان تيمور يهدف من وراء تلك المناورة هدفا آخر، هو أن تجد خيوله الغذاء الجيد والمتوفر، نظرا لأن الربيع قد حل على المنطقة، وبذلك يعوض الخيول والجنود عن فترات الجفاف والقحط التى عاشوها فى بغداد وحتى وصولهم إلى سيواس.

الخطة العسكرية

هكذا نجح تيمور فى أول اختبار عملى أمام خصمه اللدود بايزيد الذى كان فى مرحلة البحث عن تيمور المتوغل فى أراضى العثمانيين.

وبقدرة تيمور على الوصول بجيشه إلى هذه المرحلة يكون قد حقق نجاحًا استراتيجيًا على خصمه الذى فقد القدرة على الإمساك بدفة الأمور، وقد كان هناك خياران رئيسيان أمام تيمور، الأول منهما أن يقف على الضفة الشمالية الغربية للنهر ويضع جيوشه فى وضع الاستعداد للهجوم على جيوش بايزيد عندما تعبر النهر أو هى تسير نفس خط سير جيوش تيمور والاختيار الثانى أن يتوغل أكثر قدر فى استطاعته فى الأراضى العثمانية.

وقد اختار أغلب القادة العسكريين الاختيار الأول، بينما اختار تيمور الاختيار الثانى، وكان مبرره لذلك أن أغلب الجنود العثمانيين من المشاة، ومن ثم فإن سيرهم كثيرا من أجل ملاحقة جيوشه - جيوش تيمور - سيصيب هؤلاء الجنود بالتعب والإرهاق، وفى اللحظة التى لن يقدروا فيها على الحركة السريعة ستكون هى لحظة بداية انطلاق المعركة .

ولذلك قرر تيمور أن تكون مؤخرة جيشه من الفرسان الثقيلة بينما مقدمة جيشه من سلاح الفرسان خفيف الحركة والمشاة، وتكون أمامها فرقة من سلاح المهندسين لتقوم باختيار أماكن إقامة المعسكر الذى سيقيم به أفراد الجيش، كما أن مهمة سلاح الفرسان حفر الآبار وتجهيز الطعام للأفراد والخيول.

وقد تعمد تيمور فى تحركاته أن يخفى قواته عن أعين جيش بايزيد عن طريق السير خلف التلال أو وسط الغابات، وكان لهذه الحركة أثر كبير فى إرهاق جيوش بايزيد، حيث إن أغلبها من المشاة.

وكانت هناك مفاجأة بدت سيئة فى أول الأمر لتيمور وجيوشه، حيث اكتشف الجميع أن سيرهم خلف التلال وبين الغابات قد أبعدهم عن النهر، حيث لم يعد على مرمى البصر منهم كما كان الحال فى بداية سيرهم، لكن سرعان ما تحول هذا الخبر من كابوس إلى مصدر السعادة لتيمور، إذ علم من بعض جواسيسه الذين انضموا له بأنهم على مقربة من وادٍ فسيح به الماء الوفير، وبالإضافة إلى ذلك أن معسكر تمركز جيوش بايزيد على مقربة ثلاثة أيام منهم.

عندما علم تيمور بذلك أخذ يسابق الزمن فى السير للوصول إلى المعسكر الرئيسى لجيوش بايزيد قبل أن تدخله قوات الاحتياط الاستراتيجى لبايزيد، وفعلا نجح تيمور بعد يومين من الوصول إلى المركز الخالى من الجنوده اللهم إلا بعض جنود الحراسة الذين أعلنوا استسلامهم لتيمور بعدما رأوا جحافل جيشه، وهكذا نام تيمور ورجاله فى خيام بايزيد ورجاله.

وعمد تيمور إلى إرسال فرقة من فرق جيشه لمهاجمة أنقرة التى كان قد وصلها خبر استيلاء تيمور على المعسكر الرئيسى للجيش، وعندما وصلت الفرقة التيمورية إليها وجدت أن حراس المدينة قد أغلقوا الأبواب، فما كان من الفرقة التيمورية إلا أن بدأت فى مهاجمة أسوار المدينة بشراسة.

وفى نفس الوقت أمر تيمور فرقة المهندسين بضرورة تحويل مياه مجرى نهر هاليس ليكون مجراها خلف المعسكر، وبذلك يحرم جيوش بايزيد عند وصولها من الماء.

وبينما مهندسوه يحولون مجرى النهر استطاعت فرقته العسكرية أن تقتحم أحد أبراج حراسة مدينة أنقرة وأن تحتله، وذلك كمقدمة لدخول المدينة لكن تيمور أمر رجاله بالانسحاب بعد أن علم أن مقدمات جيش بايزيد أصبحت على بعد ٢٠كم من المعسكر.

جمع تيمور كل جيوشه فى المعسكر ووضعها فى حالة تأهب، وبمجرد أن حل الغروب أمرهم بإشعال النيران، وكان اتجاه الهواء يأخذ دخانها إلى حيث يقف بايزيد وجنوده المتعبون من طول السير لملاحقة تيمور، وكانوا فى حاجة إلى رشفة ماء لم يجدوها نظرا لتحويل مجرى النهر عن طريق فرق مهندسيه بالإضافة إلى جوعهم.

وهكذا أصبح بايزيد فى وضع صعب، إذ لم يكن يملك إلا اختيار وحيد وهو ضرورة البدء بالهجوم على خصمه العجوز.

وكان تيمور كعادته قد قسم جيشه إلى ميمنة، وكان يقودها ابنه ميران شاه ويساعده ابنه أبو بكر، والأمير طهارتن، والميسرة جعل قيادتها لابنه شاه روخ ويساعده ابنه خليل، والقلب جعل قيادته لحفيده سلطان محمد، ومؤخرة الجيش التى تقبع خلف القلب مباشرة فإن تيمور اختصها لنفسه، والجديد فى هذه المعركة أنه استخدم كتيبة من الفيلة يقدر عددها بحوالى ٣٢ فيلا.

بينما كان التشكيل القتالى لقوات الدولة العثمانية بقيادة السلطان بايزيد يماثل تقريبا التشكيل القتالى لقوات تيمور، إذ نجد أن بايزيد قد قسم قواته إلى ميمنة وكانت تحت قيادة الأمير سليمان بن بايزيد، والميسرة وكانت قيادتها لشقيق زوجة السلطان الملك الصربى لازار فيلكوفيتش، والقلب وقد اختصها بايزيد لنفسه ويساعده فى قيادتها ابناه موسى ومصطفى، وقوات الاحتياط التى تقع خلف القلب فكانت قيادتها للأمير محمد جلبى بن بايزيد.

بدأت الحرب فى جو حار وتحت أشعة الشمس الحارقة، وقد تعمد تيمور أن يبدأ هجومه كالعادة بميمنته القوية، لكن الجديد هذه المرة أن هجومها أخذ هيئة موجات متصلة، بدأت تلك الجبهة هجومها عن طريق الأمير أبو بكر حفيد تيمور، تبعته موجة هجومية أخرى بقيادة الأمير طهارتن، وأخيرا الموجة الثالثة بقيادة ميران

شاه بن تيمور، ونتيجة تلاحق وعنف وقسوة ضربات تلك الموجات الهجومية فإن ميسرة جيوش بايزيد قد تفسخت.

ومع نجاح ميمنة الجيش فى سحق ميسرة جيوش العثمانيين تدخلت ميسرة الجيش التيمورى بقوة فى المعركة، إذ اندفعت لمهاجمة قلب جيوش بايزيد، وأيضا من خلال هجوم ثلاثى الموجه تبعه هجوم القلب على موجات، وكان لهذه الموجات الهجومية المركزة من جيوش تيمور على جيوش بايزيد أثر فى إثارة القلاقل الشديدة فى صفوفها مما أجبرها على الانسحاب غير المنظم، مما أتاح الفرصة لأجنحة تيمور بالانطباق على وسط جيش بايزيد مما زاد المعركة اشتعالا، وتم قتل الملك الصربى شقيق زوجة السلطان بايزيد، بالإضافة إلى أن قوات الكشارية العثمانية أصبحت عاجزة تماما عن الحركة، فأعلن كثير من ضباطها وقادتها الاستسلام، وأصبح السلطان بايزيد وكبار قادة جيشه فى خطر جسيم، نظرا لهروب الحراسة من حولهم، كما أن جيوشهم قد هربت من ساحة القتال ونتيجة لذلك فقد تم أسر السلطان بايزيد وتم اقتياده إلى خيمة تيمور لنك الذى ما إن رآه حتى رحب به وأجلسه بجواره، وأمر بإحضار ملابس مناسبة له وكذلك لابنه موسى.

وبينما كان تيمور يجلس فى خيمته مع أسراه الملكيين كانت قواته تطارد فلول الجيش العثمانى حتى وصلت خلفهم إلى سواحل البحر الأسود، وكانت قوات تيمور تقتل كل من يقابلها من جيوش العثمانيين.

ونتيجة لهذه المعركة ووقع السلطان بايزيد فى الأسر فإنه مرض مرضا شديدا أقعده الفراش، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بحوالى ٦ شهور.

وهكذا استطاع القائد العجوز ابن السبعين عاما والذى يدعى تيمور لنك تحقيق حلمه الكبير بالقضاء على شوكة العثمانيين التى كانت تقلق مضجعه وتثير الكثير من

الخوف فى عقله قبل قلبه من أن تقتحم حدود إمبراطوريته المتاخمة لحدودها وتسبب له الكثير من المشاكل .

ولذلك وبمجرد أن اطمأن على انتصاره الساحق، وأنه لا خطر من العثمانيين عليه قرر العودة إلى سمرقند عاصمته الأثيرة ومدينته الحبيبة، ولم يحاول أن يتوغل غربا فى أراضى أوروبا رغم أن الطريق كان ممهدا له للقيام بذلك إن أراد.

وترجع عدم رغبته فى الدخول إلى أوربا إلى رغبته بتحقيق حلمه الأثير وهو دخول مصر ليصبح خليفة المسلمين فى العالم، وأن يضم الصين لأملاكه باعتبارها كانت من البلدان الخاضعة لنفوذ جده الكبير الفاتح جنكيز خان .

وكان المكسب الرئيسى الذى حققه بايزيد بالإضافة إلى قضائه على قوة الدولة العثمانية هو حصوله عل أسلاب وغنائم لا حصر لها.

أما أكبر الخسائر التى لحقت بتيمور من جراء دخوله تلك الحرب مع العثمانيين هو وفاة حفيده المحبوب لديه الأمير محمد سلطان نتيجة للجروح التى أصابته فى ميدان المعركة، وكان تيمور يضع كل ثقته وآماله فى حفيده محمد سلطان بعد وفاة ابنه الأكبر جهانكير، والتالى له عمر شيخ حيث أثبتت المعارك المتتالية والأحداث المتتابعة لتيمور أن ابناء ميران شاه وشاه روخ لا يتمتعان بأى سمات للشخصية القيادية، وبالتالى فإن كل آماله فى المحافظة على حدود إمبراطوريته التى أوجدها بمعاركه وانتصاراته المتتالية قد وضعها فى حفيده محمد سلطان محبوب الشعب والجيش الذى مات فى أنقرة .

لذلك حزن عليه حزنا كبيرا، وقرر أن يعود مسرعا إلى سمرقند ليرتاح قليلا من قسوة الأقدار ومتاعب المعارك قبل أن يقرر وجهة فتوحاته القادمة، وقد بدأ التحرك من أنقرة فى منتصف عام ١٤٠٣م.

احتفالات سمرقند

كانت أخبار الانتصار التاريخي لتيمور لنك على قوات العثمانيين فى معركة أنقرة قد جابت العالم كله من الصين إلى أقصى نقطة فى شمال أوروبا وقد أصبح مجرد ذكر اسمه تيمور لنك مرادفا للقوة والشجاعة، ويصيب الذعر والخوف كل من يعتقد أن دوره قد حان لملاقاة تيمور .

وبطبيعة الحال فإن الفرحة كانت مضاعفة فى سمرقند تلك المدينة التى لم يتخل عنها أبدا تيمور لنك واعتمدها عاصمة لكل البلاد التى تحت سلطانه ونفوذه، وكانت تمثل له الملجأ والملاذ عندما يضيق به الحال قبل أن ينفض عن كاهليه غبار الكسل يهاجم إحدى البلاد التى يشعر بخطرها تجاه إمبراطوريته.

لذلك عبرت سمرقند عن حبها لابنها البار بأن استقبلته وهى فى أبهى صورها، إذ تم رفع الأعلام الملونة على كل مبانيها وخرج أفراد شعبها إلى الشوارع ليستقبلوا بطلهم المحبوب على دقات الطبول وأصوات المزامير.

وقد أجبرت جموع أفراد الشعب تيمور لنك عندما عبر أسوار مدينته المحبوبة إلى أن يتحرك فى كل طرقاتها وشوارعها لتحية الناس الذين خرجوا جميعا من بيوتهم، وتعبيرا منه عن تضامنه مع أفراحهم أصدر أوامره بتوزيع الطعام على كل المحتفلين، وأن ينال كل منهم نصيبًا ولو ضئيلاً من الأسلاب والغنائم التى استولى عليها فى حروبه فى العراق وجورجيا، وأخيرا أنقرة، واستمرت تلك الاحتفالات مدة شهرين كانت سمرقند تبدو فيها كما لو كانت فى يوم عيد طويل لا ينتهى.

أمضى تيمور تلك المدة فى استقبال كبار رجال سمرقند من علماء دين وكبار تجار، وأيضا نوابه على البلاد المختلفة فى إمبراطوريته المترامية الأطراف.

وبلا شك كان لهذه الاحتفالات تأثير كبير فى العمل على تحجيم غليان حزنه على فقده لحفيده الأثير لديه فى معركة أنقرة، وهذا ما ظهر أثره فى أنه بدأ يفكر فيما يجب عليه أن يفعله فى المستقبل .

لذلك عقد اجتماعا ضم الأمراء من أولاده وأحفاده وكذلك قادة الجيش المخلصين له فى اجتماع عام، حيث طلب منهم الاستعداد لغزو الصين، وقد صرح لهم بذلك بكل حماسة يمتلكها وبكل حسم فى القول وحزم فى الأمر، وأخذ يذكرهم بأن الصين هى طريقه للوصول إلى أراضى أجداده، بالإضافة إلى أنها كانت من أملاك جده جنكيز خان، وكان من ضمن ما قاله لهم:

«لقد فتحنا كل آسيا عدا الصين طوال الفترات السابقة تغلبنا على ذلك العدد الكبير من الملوك العظام، لذلك ستظل إنجازاتنا حديث الناس على مر الزمن، لقد كنتم رفاقى فى حروب كثيرة ومعارك عديدة ولم تهزموا قط، لكن رسالتنا لم تنته بعد، فهناك الصين الوثنية القائمة إلى جوارنا، وهى ضعيفة هرمة ولن يستدعى التغلب عليها طاقة كبيرة، لذلك فإنها الهدف لحملتنا القادمة».

وبمجرد أن انتهى من حديثه ظهرت حماسة كل من حضروا الاجتماع، وأمر بعضهم بأن ينفخ فى بوق الحرب وأن تدق الطبول، ولما رأى تيمور لنك ذلك من أبنائه وأحفاده وقادة جيشه شعر أن حلم دخول الصين قد أصبح حقيقة وأنه لا يفصله عن تحقيقه إلا وقت المسير .

إلى الصين

بعد أسبوع واحد من هذا الاجتماع الحماسى الكبير كانت جيوش تيمور متأهبة للحركة لفتح الصين، وقد بلغ عددها ٢٠٠,٠٠٠ فارس وجندى وكتيبة للمهندسين وكتائب الفيلة .

وعلى الرغم من أن وقت تجميع الجيش كان فى أول فصل الشتاء وهو ما يعنى سقوط الثلوج والأمطار الغزيرة بالإضافة إلى البرودة الشديدة فى الجو إلا أن تيمور رفض نصائح معاونيه بأن ينتظر قدوم الربيع، وأصر على أن يبدأ الجيش تحركه فى هذا الوقت .

وقد كان تيمور يقصد من وراء ذلك أن تسقط الصين بين يديه بأقل مجهود ممكن، خاصة وأن حكامها كانوا يدركون أنها هدف له، لذلك قرر أن يفاجئهم مع مطلع الربيع بوجود قواته أمام سورها العظيم.

وقد منح تيمور قيادة ميمنة الجيش إلى حفيده خليل، وأمره بالخروج أولا من سمرقند، وكالعادة أحكم تيمور لنك قيادته على قلب الجيش ومنح حفيده بير محمد ابن أكبر أبنائه جهانكير قيادة ميسرة الجيش.

عبر الجميع نهر سمرقند باتجاه الصين، وكان شكل الجيش التيمورى لمن ينظر إليه من بعيد يماثل مدينة تتحرك بهدوء وانسيابية، وبمجرد عبورهم النهر هبت عليهم الرياح الشمالية شديدة البرودة فأجبرتهم على الوقوف، حيث نصبوا خيامهم، وكان تيمور قد اهتم اهتماما شديدا بأن يكون مع جيشه أعداد لا حصر لها من الأغنام والأبقار اللازمة لكفاية غذاء أفراد جيشه فى هذا المناخ الشديد البرودة.

ولم يمض وقت طويل على هبوب الرياح البـاردة عليهم حتى بدأت الثلوث فى التساقط، وبدأت جداول المياه فى التجمد، وفى تلك اللحظة حاول بعض من قادة الفرق إثناء تيـمور عن قراره بالاستمرار فى المسير والعودة إلى سـمرقند، إلا أن تيمور أصر على موقفه السابق، وقرر أن يسير بقلب جيشه إلى مدينة أوترار الواقعة على حدود الصين الشمالية، على أن يلحق به حفيده خليل قائد ميمنة الجيش.

بعد عناء شـديد وجهـد جهيـد وصل تيمور إلى أوترار، ولـلدلالة على مدى المشقة التى كابدها من أجل الوصول إلى تلك المدينة يجب أن نعرف أن معدل سيره فى اليوم كـان لا يتعدى العشـرة كيلو متـرات، نظرا لأن الثلوج قد غطت الأودية والسهول كما غطت قمم الهضاب والجبال،وكان ذلك فى عام ١٤٠٥ حيث قرر أن يتوقف عن المسير انتظارا لذوبان الجليد مع هبوب نسمات الربيع.

مع أول إطلالة لجو الـربيع الدافئ قرر تيمـور أن تقوم القـوات التى معـه بعمل طابور اصطفاف لتمام الاستـعداد، ثم تبعه بإجراء طابور استعراض عـبر فيه الجيش أمام قائده عن مدى قوته وانضباطه.

وفى هذا الاستعـراض لقوات الجيش وقف تيمـور مخاطبا جنوده وقادة جـيشه قائلا :«حافظوا بشجاعة على السيوف فى أيديكم، كونوا على وفاق فيما بينكم ففى الشقاق والفوضى خرابكم، ولا تتحولوا أبدا بوجوهكم عن السير إلى الصين».

وفاة تيمور لنك

كان الاستعراض العـسكرى للقوات أمامه وأيضا خطبته الحمـاسية فى رجاله هى آخر مرة يجتمع فـيها تيمور مع جيشه، حيث إنه فى اليوم التـالى لهذا الاستعراض وافته المنية قبل أن يرى جـيوشه وهى تتحرك إلى الصين لتحقيق أهم أحـلامه ليتفرغ بعد ذلك لتحقيق أغلى أحلامه وهو غزو مصر والسيطرة عليها.

وقد اجتمع تيـمور فى مساء اليوم السابق على وفاته وبعد الانتـهاء من مشاهدة العرض العسكرى لجيوشه بكل أمراء الجيش وقادة فرقه المختلفة حيث قرر أمامهم أنه عين حفيـده بير محمد بن جهانكير نـائبا له، وأنه فى حالة حدوث مكروه له - أى تيمور - فـإن كل سلطاته تنقل إلى بير محمد، ومن ثم فـإنه يكون صاحب القرار النهائى فى كل ما يخص شئون الجيش والشئـون السياسية الخاصة بكل البلاد والمدن التى تضمها إمبراطوريته مترامية الأطراف.

وبعد أن انتهى من حديثه طلب من كل الأمراء والقادة أن يقسموا له يمين الولاء والطاعة على ما سمعوا.

وعندما طلب منه بعض أبنـائه وأحفاده الموجودين مـعه أن يقوم باستـدعاء باقى الأحفاد ليسمعوا منه قراره صمت فجأة بعدما سمع منهم ما يطلبون وأجاب عليهم بإجابة كانت جديدة عليهم، إذ أخبرهم أنـه يعتقد أن هذه الجلسة هى آخر جلساته معهم، ثم صـمت لبرهة وأردف قائلا: إنها إرادة الله. وصمت، وبعـد فترة كان الصمت هو المخـيم فيها عـلى خيمتـه أخبرهم أنه يتـمنى أن يرى شاه روخ، لكنه أوضح لهم أن تحقيق هذه الأمنية شىء مستحيل لا يمكن تحقيقه.

بعد ذلك أنهى الاجتماع وخرج كل من فى الخيمة، وعندما حاول بعض أحفاده البقاء معه طلب منهم أن يتركوه وحيـدا، فخرجوا وأغلقوا باب الخيمة عليه، ووقف أمامه أحد الجنود ليكون فى خدمة سيده .

لكن مع مطلع النهار اكتشف الجميع أن ذلك الشجاع الذى لا يخاف المعارك ولا يخشى المواقف العصيبة قد مات.

وقد أدرك جمـيع من حوله بمجرد علمـهم بخبر وفاته أنهـم فقدوا رمزا كـبيرا وبطلا عظيـما وضعـهم فى موضع الـقيادة والتـحكم على نصف مـساحة الـعالم المعروف فى حياته.

فشل غزو الصين

كان أول شيء فعله الأمراء من أحفاد وأبناء تيمور لنك وكذلك قادة الفرق العسكرية الموجودين فى أوترار هو عقد اجتماع طارئ، حيث أخذوا يدرسون ما يجب عليهم عمله تجاه هذا الموقف العصيب الذى يواجهونه دون وجود رأى أو مشورة لتيمور لنك .

لذلك قرروا بعد شد وجذب أن يقوموا بانتخاب أحد أحفاد تيمور لقيادة الجيش حتى يستطيعوا مواصلة الزحف إلى الصين وفتحها باعتبارها كانت رغبة محبوبهم الفاتح العظيم، وفى نفس الوقت قرروا أن يرسلوا جثمان قائدهم مع أولوخ بن شاه روخ وفى حماية قوة عسكرية قوية إلى سمرقند ليدفن هناك .

حمل أولوخ جثمان جده واتجه به إلى سمرقند، وبينما هو فى الطريق كانت الرسائل قد تطايرت من أوترار إلى كل البلدان والمدن الخاضعة لنفوذ تيمور تخبرهم فيها بوفاته، وكان من ضمن تلك الرسائل رسالة إلى بير محمد تطالبه فيها بسرعة الحضور لتولى مقعد القيادة خلفا لجده طبقا لوصيته .

ثم قرر المجتمعون بعد ذلك أن يتحركوا إلى الصين لفتحها، لكن لم يمض إلا ساعات على بدء تحرك القوات التيمورية إلى هدفها حتى أعلن كل قادة الفرق العسكرية وما دونهم من قادة أنهم قد أقسموا يمين الولاء والطاعة على خليل بن ميران شاه بن تيمور كقائد عام على الجيش، وبالتالى فإن هذا التصرف منهم إنما كان يعنى عمليا أن خليل هو من سيجلس على كرسى العرش فى سمرقند بالمخالفة لوصية الجد الذى عين بير محمد خليفة له.

الرجوع إلى سمرقند

نتيجة هذا الصراع الذى حدث على السلطة بعد وفاة تيمور لنك بالمخالفة لوصيته التى كان قد أعلنها على رؤوس الأشهاد فى عين حياته فإن قادة الجيش الذين ظلوا على عهدهم لوصية تيمور لنك قرروا بعد عقد اجتماع عاجل فيما بينهم أن الأمور يشوبها الكثير من الاضطراب بعد الانقسام الذى حدث فى صفوف الجيش، ولذلك رأوا أن أفضل شىء يمكن فعله من أجل المحافظة على السمعة والهيبة العسكرية لإمبراطوريتهم والتى بناها تيمور لنك بكفاحه وعرقه وجهده أن يعودوا إلى سمرقند، وأن لا يكملوا سيرهم لفتح الصين.

وقد أسرع الجيش فى سيره عائدا إلى سمرقند حتى استطاع أن يلحق بالموكب الجنائزى لأولوغ، وعندما وصل الجميع إلى سمرقند وجدوا أن أبوابها موصدة فى وجوههم بالرغم من وجود جشمان حبيب الشعب السمرقندى معهم.

وذلك لأن خليل كان قد سبقهم فى العودة إليها وقام بتعيين نفسه حاكما عاما - إمبراطورا - على كل أملاك تيمور وبذلك يكون قد سبق ابن عمه بير محمد صاحب الحق فى اعتلاء عرش جده ومنعه من الوصول إليه.

ونتيجة لذلك فإن القلاقل والاضطرابات عمت ربوع تلك الإمبراطورية الواسعة الكبيرة مترامية الأطراف، ولم يستطع خليل ذو الشخصية الضعيفة أن يحكم زمام أمرائها، ومن ثم فإنه مع مرور الوقت بدأ كل أمير فى الاستقلال بإمارته،وذلك بعد عدة حروب قامت بين الأحفاد الذين لم يستطيعوا الاتفاق على كلمة سواء تجعلهم يحافظون على إمبراطورية جدهم العظيم والذى كان بحق آخر الفاتحين العظماء فى تاريخ العالم، حيث لم ينجح أحد من بعده وحتى الآن فى السيطرة على العالم كما فعل تيمور.

أهم المراجع المباشرة

١ - ابن عربشاه — عجائب المقدور فى أخبار تيمور

٢- ابن حجر العسقلانى — أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشى.

٣- ابن طولون — الثغر البسام فى ذكر من تولى قضاة الشام تحقيق صلاح الدين المنجد .

٤ - الخطيب الجوهرى — نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى.

٥- المقريزى — كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عاشور ، محمد زيادة .

٦- السخاوى — الضوء اللامع ج٦.

٧- بارتولد — تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان .

٨- حكيم أمين — قيام دولة المماليك الثانية .

٩- غياث الدين خواندمير — دستور الوزراء، ترجمة حربى أمين سليمان .

١٠- جمال الدين أبو المحاسن — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة تحقيق فهيم شلتوت.

١١ -سعيد عاشور — العصر المماليكى فى مصر والشام.

١٢ - لى ستيرينج — بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس.

١٣ - والترفشل — لقاء ابن خلدون لتيمور لنك ترجمة محمد توفيق.

١٤ - هارولد لامب — تيمور لنك، ترجمة عمر أبو النصر.

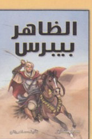


الفهرس

الموضوعات | الصفحات

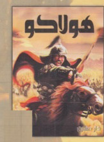


من إصدارات دار مشارق









دار مشارق